

الكتاب: التوابون
المؤلف: الدكتور إبراهيم بيضون
الجزء:
الوفاة: معاصر
المجموعة: مصادر التاريخ
تحقيق:
الطبعة:
سنة الطبع:
المطبعة:
الناشر:
ردمك:
ملاحظات:

التوابون
تأليف:
الدكتور إبراهيم بيضون

(١)

الاهداء
إلى روح أبي
التي لا تزال مصدر الهام لي ومنبع عطاء..
أقدم هذا الكتاب الذي هو نفحة من ذلك الالهام وبعض من ذلك العطاء.
إبراهيم

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

(٤)

اللهم انا قد خرجنا من الديار والأموال. وفارقنا الأهلين والأولاد، نريد جهاد
الفاستقين المحلين الذين قتلوا ابن بنت نبيك فتب علينا وارزقنا الشهادة يا أرحم
الراحمين.

اللهم انا نعلم انه لو كان الجهاد منهم بمطلع الشمس أو بمغرب القمر أو بمنقطع
التراب لكان حقيقا علينا أن نطلبه حتى نناله فان ذلك هو الفوز العظيم والشهادة
التي ثوابها الجنة.
عن الفتوح لابن الأعمش الكوفي

المقدمة

ان تاريخنا العربي حافل بالكثير من الشخصيات الفذة التي ساهمت بمواقفها البطولية وتضحياتها الرائعة في صنع هذا التاريخ. بيد أن فئة غير قليلة من هؤلاء، لم نجد لها محلا لائقا في مجالات التقييم والنشر، فظل بعضها مطموسا في صفحات الكتب القديمة،

والآخر تناولته الأقلام بشكل عابر، فما زادت القارئ الا فضولا والا تشويقا لمعرفة المزيد.

وسليمان بن سرد الخزاعي موضوع كتابنا، هو من تلك الفئة التي تكاد تكون شبه مجهولة

حتى للقارئ التاريخي في كثير من الأحيان. ويرتبط اسم سليمان بثورة التوابين التي قامت كردة فعل عفوية لمصرع الحسين في كربلاء، وانبثاقا من الشعور بالذنب الذي غمر

الكوفة حينئذ، ومحاولة للتكفير عنه بأية وسيلة.

والواقع ان حركة التوابين التي قامت بزعامة سليمان ورفاقه من قادة الحزب الشيعي، هي

طراز فريد بين

الحركات السياسية العديدة التي شهدتها تلك الفترة المهمة من التاريخ العربي، ذلك انها لم تتضمن شيئاً من برنامج الحركة الشيعية السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي على غرار ما ظهر قبل ذلك في ثورة الحسين أو ما ظهر من ملامح فيما بعد في حركة المختار الثقفي، وانما انحصرت في ظل اطار التكفير عن الذنب واتخذت من الثأر للحسين

شعاراً رئيسياً لها، وانعكس عليها سلوك زعمائها المثالي وشخصياتهم المرتفعة التي زهدت بالمناصب ورفضت المساومات، ونبذت كل موقف لا يتلاءم مع المبدأ العام للحركة،

الذي لخصه سليمان بالعبرة الآتية: انه لا يغسل عنهم ذلك الجرم الا قتل من قتله أو القتل فيه (١).

وانطلاقاً من هذا المفهوم نجد أن حركة التوايين كثورة سياسية لا تتعد بذلك عن الخط

المبدئي لحركة المعارضة الشيعية أثناء مراحلها النضالية المتلاحقة من أجل استلام الحكم. فالتخلي عن هذا المطلب - كان بنظرهم - تخلياً عن حق شرعي وخرقاً لعهد إلهي.

ونتيجة لذلك لم يكن طلب السلطة عندهم للتحكم، وانما لتنفيذ مبدأ هو الاسلام. ولا ريب في أن وجود مثل هذه الأفكار المثالية

(١) المسعودي: مروج الذهب ٣ / ٣٧ - ٣٨.

كان سببا لاختفاق الحركات الشيعية وعاملا ساعد الأمويين على تصفيتها بسهولة. وفي هذا الكتاب عن ثورة التوابين وزعيمها سليمان بن صرد، رأينا انه من المفيد البحث

في جذور المشكلة التي كانت دافعا لكل تحرك شيعي ضد النظام الأموي، وهي مشكلة

الحكم. ورغم أن ثورة التوابين لا تدخل ضمن هذا التحرك، ولكنها تتصل به بصورة غير

مباشرة باعتبارها ردة فعل لثورة الحسين، باكورة التحرك الشيعي المنظم. ولكي نوفر لهذا البحث المعطيات اللازمة والأساسية لكل بحث موضوعي، عالجتنا مشكلة

الحكم في الاسلام بعد النبي وخلفياتها في مجتمع شمالي شبه الجزيرة العربية، وظهور منصب الخلافة ثم تطور مفهومه من الناحية السياسية البحتة إلى الإمامة. بعد ذلك تطرقنا بشيء من الاختصار إلى ثورة الحسين قبل أن نتوسع في تفاصيل الحركة التوابية موضوع بحثنا.

أما المنابع التي استقينها منها عناصر هذا البحث فكانت بصورة أولية مخطوطة الفتوح لابن الأعمش الكوفي من رجالات القرن الثالث للهجرة وبعض المصادر القديمة المعروفة،

فضلا عن عدد غير قليل من المراجع الحديثة.

وأخيرا فأرجو أن أكون قد وفقت في اللقاء ضوء على شخصيات لم تنل حقها العادل
في
مجال التقييم، وأن أكون قد أسهمت بدور متواضع في خدمة الفكر التاريخي للعرب.
بيروت ١٧ / ٩ / ١٩٧٤
إبراهيم بيضون

الباب الأول.. الحكم بعد محمد

(١٢)

كان موت الرسول بعد سنوات قليلة من وضعه الأسس الأولى لدولة الاسلام، مفاجأة
أذهلت،
ربما الشخصيات التاريخية التي عاصرتة وعاشت قريبة منه. فموته شغل مركز الحكم
الأول
دون اعداد للرجل الذي يمكن أن يشغله، من الناحية الرسمية على الأقل، لان أكثر من
مرشح في الواقع اتجهت إليهم الانظار بعد الخروج من هول المفاجأة، بعضهم كان
يطرح
نفسه مدفوعا باعتبارات قبلية، وبعضهم لسابقته في الاسلام والجهاد في سبيله. وهكذا
وجد المسلمون أنفسهم بعد وفاة الرسول مباشرة في مهب أزمة سياسية كادت تعصف
بالبنين
الذي كان لا يزال حديث العهد. فالحكم في الدولة الاسلامية الناشئة ارتبط ارتباطا
وثيقا بشخصية الرسول، وعلى ذلك لم تطرح في حياته مسألة الخلافة، حتى إذا غاب
المؤسس حدث فراغ كبير في جهاز الحكم وأخذت تباشير لازمة تنذر بالانفجار
والرسول لا
زال مسجى في بيته.
هل كانت هناك وصية من الرسول حول خلافته؟
انه تساؤل أثار كثيرا من الجدل ولا زال... ورغم

ان البعض يؤكّد وجود مثل هذه الوصية (١) التي تشير إلى أن الرسول كان يعدّ علياً لخلافته فإن هذا برأيهم ورأي آخرين غيرهم، أقلّ ما تفرض الاعتقاد به تصرفات النبي إذ

كان من غير المعقول الا يعالج مسألة الحكم قبل موته أو ألا يجلو عنها الغموض على الأقل.

والواقع ان عدة مؤشرات يمكن أن تضيء لنا الطريق في بحثنا لهذه المسألة، وكلها توحى

بأن الاعداد للخلافة كان لا ينفصل عن تصرفات النبي واجراءاته النظرية والتطبيقية، وان ثمة مخططاً واضحاً كان يرمي إلى اختيار علي بمعرفة الزعماء الكبار من المسلمين.

وقد أدى ذلك إلى ظهور أول تكتل سياسي في المدينة، اتخذ موقفاً موحداً من الخلافة،

ضم أبا بكر وعمر وأبا عبيدة.

ويبدو أن النبي كان يسمع اعتراضات هؤلاء وغيرهم بشأن اعداده لعلي تتناول أكثر ما تتناول تأخره عنهم في السن كثيراً. فيأتي جواب النبي في تركيبة الجيش الذي أرسله لغزو الأطراف الجنوبية من بلاد الشام (٢) وضم عدداً من كبار الصحابة كأبي بكر وعمر

وأبي عبيده وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من شيوخ المسلمين والمهاجرين والأنصار،

(١) صحيح البخاري ٥ / ١٣٧.

(٢) ابن هشام: ٢ / ٦٠١.

وكان هؤلاء جميعا تحت قيادة أسامة بن زيد الحدث السن والأقل شأنا بينهم في مركزه

السياسي ومكانته القبلية (١).

وليست من قبيل الصدفة أن يستثنى علي من الدخول في هذا الجيش وما كان بقاؤه إلى جانب النبي - وهو في آخر أيامه - إلا تحسبا للظروف.

وقد حدث بعد اشتداد وطأة المرض على النبي ما أكد إصراره على خروج أسامة بالجيش مع أنه

لم يكن هناك ضرورة ملحة لهذا الإصرار، سوى أن ذلك كان محاولة أخيرة لا يصلح علي

إلى الخلافة بأبعاد كبار الطامحين إليها عن المدينة. وقد أدرك هؤلاء هدف النبي فترددوا في تنفيذ أوامره وآثروا عدم الابتعاد عن المسرح السياسي في ظل ظروف دقيقة كهذه (٢).

ونحن لن نتوغل هنا في تفاصيل أحداث الأزمة السياسية التي سيطرت على المدينة، وتطاحن

الأحزاب فيها من أجل الاستيلاء على السلطة، فأمر ذلك معروف ومتداول بين مختلف فئات

الناس. ذلك أن غايتنا هي البحث في جذور حركة التشيع سياسيا ثم ظهور الحزب

(١) يعقوبي: ٢ / ١١٣.

(٢) يعقوبي: ٢ / ١٢٧، الطبري: ٣ / ٢١١.

الشيعة الذي قاد معظم حركات المعارضة في الاسلام، وفجر أشد الثورات عنفا ضد النظام

الأموي ثم العباسي.

ان الفراغ الذي أحدثه بالدولة الفتية أثناء مرض النبي لم يشل الحركة السياسية في المدينة التي غدت دون حكومة وبلا امام. ففي حين لازم علي بيت الرسول مطمئنا على ما

يبدو بأن سير الأمور سيتجه لمصلحته (١)، نشط السياسيون الذين كانوا يترصدون الاحداث

عن كثب وبدأوا يتحركون بسرعة، ولعلمهم أدركوا ان السرعة هي التي تقرر الأمور في مثل

هذه المواقف.

وعندما مات النبي كان الوضع شديد التوتر، والناس موزعة بين تكتلات ثلاثة:
١ - أسرة النبي وجمهور المسلمين وبعض كبار الصحابة أمثال: الزبير وسلمان وأبو ذر والمقداد فضلا عن شخصيات أخرى كأبي سفيان وخالد بن سعيد الأموي والبراء بن عازب

الأنصاري (٢). وكان علي مرشحهم للخلافة.

(١) الطبري: ٣ / ٢٠٤.

(٢) مرتضى العسكري: عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى: ٨٧.

٢ - بعض زعماء الأنصار الذين اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة مع نفر قليل بزعامة كبير

الخزرج سعد بن عبادة الذي كان يحاول اعلان ترشيحه للخلافة.

٣ - تكتل (أبو بكر، عمر، أبو عبيدة) من المهاجرين وكانوا جميعا مرشحين للخلافة. ولقد كان تكتل الأنصار في الواقع سباقا في إثارة المشكلة حين سارع إلى التجمع في سقيفة بني ساعدة فور العلم باحتضار الرسول، وكان أبرزهم سعد بن عبادة الذي جيء به

وهو مريض، وصوته يتهدج إلى درجة أن ابنه كان ينقل ما يقوله إلى الحاضرين (١). وهنا

تحرك تكتل المهاجرين الثاني (أبو بكر، عمر، أبو عبيدة) وخطط بذكاء مستفيدا من الظروف إلى أبعد الحدود، ومعتمدا على سلبية تكتل المهاجرين الأول المنشغلين بموت

الرسول، وعلى ضرب اتفاق القبيلتين (٢) التي يتألف منها تكتل الأنصار خاصة وأن ترشيح

سعد الخزرجي لم يلق تجاوبا لدى زعماء الأوس (٣)، وأوجد بعض المزاحمة في قبيلة الخزرج نفسها من جانب بشير بن سعد الأنصاري، فضلا

(١) طبري: ٣ / ٢٠٧.

(٢) الأوس والخزرج.

(٣) أسيد بن حضير وعويم بن ساعدة. طبري: ٣ / ٢٠٩ ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ١ / ٩.

عن أن بعض الأنصار قالت لا نبايع الا عليا (١). وما لبث التصدع أن أصاب جبهة الأنصار بظهور أول موقف تراجعى أعلنته طائفة منهم بقولها: منا أمير ومنكم أمير. وكان ذلك أول الوهن كما عبر عنه سعد بن عبادة (٢)، وهو لا شك قد لامس الحقيقة، لان جدلا عنيفا تفجر في السقيفة حينئذ، ولم يخفف من حدته الا محاولات عمر لاشغال الرأي العام بقضية موت النبي (٣)، ثم ظهور أبي بكر (٤) حيث ألقى خطبة عرض فيها دور المهاجرين في نصره الرسول وسابقتهم في الاسلام (٥) وأعلن انه ورفاقه الجماعة التي ينبغي ان يكون لها هذا الأمر (٦)، دون أن يتجاهل دور الأنصار ونصيبهم في الدولة الناشئة (٧).

(١) طبري: ٣ / ١٩٨.

(٢) طبري: ٣ / ٢٠٨.

(٣) طبري: ٣ / ١٩٧.

(٤) طبري: ٣ / ١٩٥.

(٥) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة: ١ / ٦.

(٦) لن تعرف العرب هذا الامر الا لهذا الحي من قريش: ابن هشام.

(٧) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة: ١ / ٦.

ويبدو ان خطبة أبي بكر فعلت فعلها في نفوس المجتمعين في السقيفة، وكان حينذاك
عمر

بذكائه الشديد وشخصيته القوية يبذل جهدا فائقا في استغلال الموقف الذي بدأ يتحول
تدريجيا لصالح المهاجرين. فقد أصبح الآن باستطاعة أبي بكر ان يطرح رجلا من تكتله
للخلافة وفعل ذلك حين قال: هذا عمر وهذا أبو عبيدة، فأيهما شئتم فبايعوا (١).
ولكن عمر أبي الاستجابة لدعوة أبي بكر وأصر على أن يكون هذا الأخير هو الخليفة.
وثار الجدل من جديد، وفي غمرة ذلك تقدم عمر من أبي بكر قائلا: من ذا ينبغي له أن
يتقدمك أو يتولى الامر عليك، ابسط يدك نبايعك (٢). وبذلك خرج أبو بكر من
السقيفة

أول خليفة في الاسلام حائزا على تأييد الأنصار واثنين من زعماء المهاجرين الكبار.
وكانت خلافة أبي بكر أشبه ما تكون بانقلاب سياسي ناجح، فجره تمرد الأنصار في
السقيفة، وحوله تكتل المهاجرين إلى مصلحته، دون أن يتاح لفئة مهمة من المسلمين
في

أن تمارس حقها المشروع في عملية الاختيار. فالظروف التي تمت فيها البيعة، لم تكن
في
مطلق الأحوال ملائمة

(١) الطبري: ٣ / ٢٠٩.

(٢) الطبري: ٣ / ٢٠٩.

لتقرير مسألة خطيرة كالخلافة، حين تمخض عنها تشريع عرفي، بأن السلطان لمن غلب، وكان لا بد من أن تعكس سلبياتها طويلا على تلك المؤسسة. كانت حادثة السقيفة، برغم الاجماع الذي حظي به أبو بكر، وبيعة مختلف الأحزاب له فيما بعد، نقطة البداية في تاريخ الحركة الشيعية (١). ذلك أن اختيار أبي بكر وابعاد علي لم تستسيغهما جماعة هذا الأخير والمؤيدين له.. وقد ترك أعمق الأثر في نفوس هؤلاء الذين التفوا منذ ذلك الحين حول علي وأيدوا قضيته في الخلافة، ثم تحولوا إلى حزب سياسي عرف بالحزب الشيعي (لمشايعته عليا) أو العلوي نسبة اليه.

(١) احمد صبحي: نظرية الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية، ٢٨ - ٢٩.

قيام مؤسسة الخلافة وتطورها السياسي
ليس من السهل أن نبحث في مسألة نشوء الخلافة وتطور أسسها والتحول في مفاهيمها
السياسية والعقائدية. فذلك يحتاج أولاً التعرض إلى المنطلقات السياسية مع أصول
الإدارة والسلطة عند العرب قبل قيام الاسلام، ثم تطور هذه الأصول والمنطلقات بعد
انتصار الاسلام وتأسيس دولته.
ولا بد للباحث، عند الشروع بمثل هذا العمل، أن يجد نفسه ملزماً في التعرف إلى
أحوال
مكة ومجتمعها بشكل أساسي، ثم أحوال بقية شبه الجزيرة حاضرها وباديها. لم تعرف
مكة
قبل قيام الاسلام الحكومة بأي شكل من أشكالها وحدود سلطاتها، بل أديرت شؤونها
من
قبل كبار التجار وممثلي كبار الأسرة القرشية. وكان للمدينة عدد من الشعب الوظيفية
وزعت كل واحدة منها على أسرة من الأسر، دون أن يكون هنالك اية هيئة حاكمة
تتمتع
بصفة من صفات الشرعية. كذلك لم تعرف المدينة

أي نوع من أنواع القوة المسلحة، أو يوجد فيها جماعات كهنة لهم نفوذ وسلطات، بل كان

زعماءؤها يجتمعون أحيانا للتداول في القضايا والمشاكل، وكان مكان اجتماعهم يدعى (دار الندوة). غير أن القرارات التي كانت تتخذ في هذه الأخيرة، لم يكن لها صفة الالتزام، وإنما كان الأخذ بها اختياريا وفرديا... وكان اجماع زعماء المدينة على أمر من الأمور متعذرا في كثير من الأحيان، وكثيرا ما كانت تنقسم المدينة في مواقفها من القضايا وتعقد التحالفات المتضادة داخلها، وفي النهاية يكون النصر غالبا للحلف الأقوى. وفي كتب الاخبار والسيرة أحاديث طويلة حول بعض القضايا التي

واجهها مجتمع مكة وحول أحلاف هذا المجتمع، ويستفاد من بعض الاخبار انه وجد لدى

المكيين مفهوم واحد للشرعية الواجب الالتزام بأوامرها مهما كانت، وهذا المفهوم ارتبط بالكعبة التي كانت موضع اجلالهم وقد استهم. فعندما كان يجمع غالبية الزعماء المكيون على أمر من الأمور كانوا يدونون ما أجمعوا عليه في صحيفة ويقومون بتعليقها في جوف الكعبة، وهنا يأخذ الامر صفة الشرعية. ولدينا مثال واضح حول هذا: ما عمله

المكيون حين أعلنوا صحيفة مقاطعة بني هاشم التي اضطرت هؤلاء الالتزام بها، فتركوا مكة وأقاموا محصورين في شعب أبي طالب، وعاشوا في ظل المقاطعة حتى مزقت الصحيفة (١).

(١) سهيل زكار: التاريخ عند العرب، ٩٥ - ١١٥.

هذا وقد استمرت عادة تعليق صحف المعاهدات والوصايا وغيرها في الكعبة. ومن أوضح

الأمثلة على ذلك ما فعله هارون الرشيد حين قام بتولية أولاده العهد من بعده. ان أمر الالتزام بشرعية الأوامر المعلقة في جوف الكعبة مرتبط بقدسيته، حيث اعتبرها القرشيون بيت الله. وهكذا فالامر المعلق في جوفها أصبح له صفات إلهية، وهو أمر في غاية الأهمية، وقد تطور بعد ذلك تطورا كبيرا.

وبعد قيام الاسلام، ومع بداية التبشير به لم يحدث تغيير جوهري فيما كان سائدا في مكة، ذلك أن النبي لم يمارس أية سلطات على الذين آمنوا برسالته، ولكنه مع ذلك فقد غدا مسموع الكلمة، محترما ومتبع الرأي بين أتباعه.

وقد تبدل هذا الحال كليا بانقضاء الفترة المكية وهجرة المسلمين إلى المدينة، حين عمل النبي الذي أصبح بالإضافة إلى صفة النبوة يتحلى بصفة زعيم أمة وحاكمها المطلق

النابعة أحكامه من إرادة الله، عمل هذا النبي على انشاء أمة جديدة ذات تقاليد وقواعد جديدة. ولأول مرة في حياة مجتمع شمالي شبه الجزيرة العربية، لا بل في مجتمع

الجزيرة كله، قامت تجربة جديدة للحكم، مركزية السلطة،

حاكمها يملك الحق في التشريع وفي نفس الوقت يقع عليه واجب تنفيذ الاحكام. ولم يكن

تطبيق هذا والقبول به من قبل العرب من الأمور السهلة، لكن النبي نجح إلى أبعد الحدود في ارساء قواعد لحكم الأمة الجديدة التي أقامها وان كان لم يأت بنظرية للحكم

ذات أسس ومنطلقات ثابتة.

هذا وقد تناول بعض الناس هذه القضية حيث يرون بأن النبي قد أتى بنظرية خاصة في الحكم والسياسة، هي نظرية الشورى، معتمدين على ما جاء في القرآن الكريم وأمرهم شورى بينهم أو وشاورهم بالأمر. ومع الاقرار بما ترمي اليه هذه الآيات، فان القرآن لم يبين قواعد الشورى هذه وحدودها وطرق تطبيقها، كما لم يبين إلى أي حد كان

على النبي الاخذ برأي أصحابه وأتباعه. وعندما يعود المرء إلى كتب السيرة يجد أن مفهوم هذه القضية لم يكن واضحا عند أحد من الصحابة، كما لم تتوضح معالمه في الممارسات زمن النبي.

لقد ملك النبي وحده جميع فروع السلطة من تشريع وقضاء وإدارة وجباية وأعمال حربية،

وذلك بالإضافة إلى صفته الأساسية وهي النبوة. وهكذا امتزجت مفاهيم السلطات الزمنية

بمفاهيم السلطات الدينية في الاسلام، وصار كل أمر في الدولة العربية الناشئة مزدوج الصفات

زمنيا ودينيا. وكان النبي أحيانا ينتدب بعض أصحابه فيكلفهم ببعض الوظائف حين يتعد عن المدينة، أو يرسلهم لتنفيذ بعض المهام مثل جباية الصدقات أو تفقيه الناس بالاسلام وإمامتهم بالصلوات أو تنفيذ مهمات عسكرية. وكان الذي ينوب عن النبي في امامة الصلوات يدعى خليفة النبي، وكان قائد الحملة العسكرية يسمى أمير. ولما كانت القوات التي يقودها هذا الأخير قواتا مؤمنة تقوم بتنفيذ مهمة ضد جماعات غير مؤمنة، فقد كان بعض القادة العسكريين يميزون عن قادة الأعداء بلفظة أمير المؤمنين! (١). وكان الخليفة على الصلوات يؤدي الصلاة كما يؤديها النبي دونما زيادة أو نقصان، ذلك

أن الخليفة هو النائب عن الأصل الملتزم كليا بما عهد اليه من أوامر وتعاليم. وكانت صلاحيات أمير الجيش أوسع من صلاحيات الخليفة، ذلك أن قيادة العساكر تستوجب

الطاعة المبرمة، وتعطي القائد فرص التصرف وابداع الحلول واصدار ما يراه ضروريا من أوامر وتعليمات. ففي حين حرم الخليفة من السلطات التشريعية منح ذلك للأمير وتمتع به.

ومع اتساع رقعة الدولة الجديدة، وتعاضم

(١) التراتيب الإدارية: ١ / ٢ - ٨.

المسؤوليات فيها، تقدم النبي بالسن وأخذت آثار المرض وما عاناه تظهر عليه، وهنا -
كما يستخلص من الاخبار - أخذ بعض المسلمين يفكرون في مستقبل العقيدة وفي
شؤون
الحكم في الدولة ومع مرض النبي الأخير أصبحت هذه المسألة هاجسا جثم على
صدور
المسلمين، وأثيرت هذه القضية قبل موت النبي، ويبدو انه حاول وضع الحل لهذه
المسألة
ولكن مرضه وأمورا أخرى حالت بينه وبين ذلك (١).
وبعدما توفي النبي تم استلام أبي بكر لمقاليد الحكم في الدولة الجديدة في ظروف
سبق
شرحها، وأصبح منصب الخلافة منذ ذلك الحين رسميا وأساسيا في الحياة السياسية
للأمة
الاسلامية، بينما لم تكن له في البداية أية هوية واضحة المعالم والأسس.
وحاول أبو بكر تحديد معالم منصبه الجديد منطلقا من مفهوم الخلافة اللغوي، أي أن
الخليفة نائب ملتزم بأوامر المنيب وأفعاله. وقد ظهر ذلك في قوله انما أنا متبع
ولست بمبتدع، وظل أبو بكر يعرف طيلة حكمه بخليفة رسول الله، ذلك أنه لم يحتج
إلى
تبديل لقبه، لان

(١) انظر صحيح البخاري: ٥ / ١٣٧ - ١٤١.

مدة حكمه كانت قصيرة، لم يحدث فيها مشاكل جديدة تحتاج إلى تشريع. وهكذا ظل أبو بكر

يعتبر نفسه نائبا عن النبي منفذا لكل ما جاء به، ويرى نفسه انه لا يملك اية صلاحيات تشريعية، كما أنه لا يملك اجبار المسلمين على ركوب خطة لم يحدد معالمها

النبي والقرآن الكريم.

ومات أبو بكر والحالة من حيث الجوهر كما هي، سوى ان رقعة الدولة قد اتسعت فشملت

أراضي خارج شبه الجزيرة، كما أنه تجمع في الأقاليم المفتوحة قوات عربية مسلحة لا ريب انها أخذت تتطلع نحو اسماع صوتها ورأيها في السلطة. وقبيل وفاته قام أبو بكر بتعيين عمر بن الخطاب لتولي شؤون الحكم من بعده. وقبل الناس بهذا التعيين، الامر الذي يدل على حدوث تغييرات في مفاهيم الناس السياسية.

واستلم عمر السلطة والدولة الناشئة تجتاز مرحلة حاسمة وتواجه مشاكل خطيرة تحتاج إلى

حلول، ومثل هذه الحلول تطلبت ممارسة الخليفة صلاحيات تشريعية، ذلك أن الكثير من

المشاكل كان جديدا ليس له نظير بين مشاكل العصر النبوي، ومن الأمثلة على ذلك قضيتا

السواد ونصارى تغلب، حيث قضت الاحكام الاسلامية بتقسيم الغنائم التي يحصل عليها

المسلمون وفقا لقواعد

حددها القرآن، كما قضى الاسلام بأن يدفع أهل الذمة من نصارى وسواهم من غير المسلمين الجزية دونما استثناء.

فبعد الاستيلاء على سواد العراق وفتح الجزيرة اقتضت الاحكام تقسيم أرض السواد، ودفع قبيلة تغلب العربية للجزية أسوة ببقية سكان الجزيرة النصارى، لكن هؤلاء رفضوا دفع الجزية. ولقد أدرك عمر ما يمكن أن يلحقه تقسيم السواد من مضار، فما كان منه الا ان ترك قسمته، ولجأ إلى مضاعفة الصدقة على نصارى تغلب، بدفع ضريبة من نفس النوع الذي يدفعه المسلم انما الكمية مضاعفة (١).

ان في اقدام عمر على مثل هذا العمل، يعني انه قد منح نفسه صلاحيات تشريعية الامر الذي لم يفعله أبو بكر، فهو بذلك لم يعد خليفة بمعنى النائب بل تصرف كتصرف أمير الجيش. وهكذا تخلى عمر عن لقب خليفة ليكتسب لقب أمير المؤمنين (٢)، وفي هذا التعبير مؤشرات تدل على تبدل جوهرى في المفاهيم السياسية للدولة الاسلامية، خاصة وأن العرب المسلمين اختلطوا بشعوب كانت خاضعة لفارس وبيزنطة قبل خضوعها للعرب فتركت بعض التأثير.

(١) أبو يوسف: الخراج، ٢٨ - ٤٧.

(٢) الطبري: ٥ / ٢٢.

ومع امتداد الأيام واتساع رقعة الدولة و بروز مشاكل جديدة أصبح الناس أكثر قبولاً
لإعطاء الخليفة صلاحيات أوسع في التشريع، ويبدو أن عمر كان متنبها لذلك، فأخذ
يبحث

عن قاعدة يرتكز إليها في المستقبل، غير أن اغتياله المفاجئ جاء ليمنعه من اتمام
هذا الامر. وبينما هو على فراش الموت يعاني من آلام جراحه، لم يشغله ذلك عن
هاجس

الحكم ومستقبل زمام السلطة في الدولة الاسلامية الناشئة. نظر عمر حوله، فرأى ستة
من

أصحاب النبي كل واحد منهم يمثل فرعاً بارزاً من أسرة الزعامة القرشية. وكان أبرز
هؤلاء الستة، علي بن أبي طالب ممثل بني هاشم، أسرة النبي، آل البيت في الاسلام،
وأبرز أسر الزعامة قبل الاسلام من جهة، ومن جهة ثانية عثمان بن عفان ممثل أسرة بني
أمية، أسرة المال والزعامة الأولى قبل الاسلام، والتي تسلم العديد من أفرادها أخطر
مناصب الولايات بعد فتح مكة وأيام الفتوح زمن أبي بكر وعمر نفسه. ويبدو أن هذا
الأخير رأى في تعيين علي مقدمة لقيام حكم الأسرة المقدسة، ورأى في تعيين عثمان
تمهيداً لتمكين بني أمية من التسلط الكلي على الدولة وتسييرها بعقلية الأرستقراطية
التجارية المؤثرة.

لهذا أثر عمر عدم تحمل مثل هذه المسؤولية فتكون آخر أعماله وأخطرها، فكان أن
ترك

هذا الامر للستة الباقين من أصحاب النبي، ليقوموا باختيار أحدهم خليفة.

وتوفي عمر، واجتمع هؤلاء فوضحت منذ البداية معالم الصراع، حيث أعلن أربعة من المرشحين عزفهم عن ترشيح أنفسهم مع احتفاظهم بحق التصويت. وبذلك انحصرت المعركة بين علي وعثمان، وأوكلت الأمور إلى عبد الرحمن بن عوف لاختيار واحد منهما. وقام هذا

الأخير باستطلاع آراء الناس، فكان أن واجه تيارين: أحدهما مل قسوة نظام عمر ورقابته المركزية الشديدة وعدم تساهله، ورأى في استلام علي للحكم استمراراً، لا بل تطويراً لنظام الخليفة السابق، وتطبيقاً أشد لقوانين الإسلام. ذلك أن علياً كان ابن الإسلام وريب البيت النبوي وعارفاً بأمور الدين وعلومه أكثر من سواه، فقد شرب من ينابيعه الأولى منذ البداية وحتى نهاية حياة النبي بلا انقطاع أو توقف، كما رأى اتباع هذا التيار ان في استلام علي للسلطة انتصاراً دائماً للتيار الهاشمي الذي انتصر بنجاح النبي وطعن يوم السقيفة. ولقد كان اتباع هذا التيار أقل قوة من التيار الآخر، غير أنه كان أكثر مرونة وأوسع دهاء وأقل مثالية وأبرع في اعداد الانقلابات وخلق المواقف المحرجة (١).

(١) جاء في تاريخ الطبري ان عبد الرحمن بن عوف بعث في صبيحة اليوم الثالث لوفاة عمر إلى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الأنصار، والى امراء الأجناد فاجتمعوا حتى التج المسجد بأهله فقال: ايها الناس، ان الناس قد أحبوا ان يلحق اهل الأمصار بأصهارهم وقد علموا من أميرهم، فقال سعيد بن زيد: انا نراك لها أهلاً، فقال: أشيروا علي بغير هذا. فقال عمار: ان أردت الا يختلف المسلمون فبايع علياً، فقال المقداد بن الأسود: صدق عمار، ان بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا. قال ابن أبي سرح: ان أردت الا تختلف قريش فبايع عثمان: فقال عبيد الله بن أبي ربيعة: صدق أن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا. فشمتم عمار ابن أبي سرح وقال: متى كنت تنصح المسلمين. فتكلم بنو هاشم وبنو أمية فقال عمار: أيها الناس أن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه فأني تصرفون هذا الامر عن أهل بيت نبيكم! فقال رجل من بني مخزوم: لقد عدوت طورك يا ابن سمية، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها. فقال سعد بن أبي وقاص: يا عبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس، فقال عبد الرحمن: اني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط علي أنفسكم سبيلاً. ودعا علياً فقال: عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفين من بعده؟ قال: أرجو أن أفعل واعمل بمبلغ علمي وطاقتي، ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي، قال: نعم، فبايعه، فقال علي: حبوته حبو دهر ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان علي ما تصفون، والله ما وليت عثمان الا ليرد الامر إليك والله كل يوم هو في شأن. فقال عبد الرحمن: يا علي لا تجعل علي نفسك سبيلاً فاني قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان، فخرج علي وهو يقول: سيبلغ الكتاب أجله، فقال المقداد: يا عبد الرحمن أما والله لقد تركته من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون، فقال: يا مقداد والله لقد اجتهدت للمسلمين. فقال المقداد: ما رأيت مثل ما أوتي أهل هذا البيت بعد نبيهم، أني لأعجب من قريش انهم تركوا رجلاً ما أقول أن

أحدا أعلم ولا أفضى منه بالعدل. فقال عبد الرحمن: يا مقداد اتق الله فأني خائف عليك الفتنة، فقال علي: أن الناس ينظرون إلى قريش وقريش تنظر إلى بيتها فتقول: أن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدا، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم - الطبري: ٥ / ٣٧ - ٣٨.

لقد رفض علي القبول بشروط عبد الرحمن بن عوف

(٣١)

وأصر على أن يعمل بمبلغ علمه وطاقته، ذلك أنه أتسم بالعلم والمعرفة الواسعة بالاسلام، والى هذه الناحية الأساسية أشار المقداد بن الأسود، واتسام علي بالعلم والمعرفة صار فيما بعد، أي بعد نشوء الحزب الشيعي وتطوره حجر أساس في العقيدة الشيعية.

وبعدما صار عثمان أميراً للمؤمنين تمهد السبيل امام بني أمية للسيطرة على مقاليد السلطة للأمة الجديدة والتحكم بها، على أن ذلك لم يحدث دون ردات فعل، ودونما

ثمن باهظ كان على عثمان أن يدفعه بدمه. وجاءت خلافة علي،

فكانت أشبه بفترة انتقال انتهت معها فترة الخلافة لتحل محلها على الصعيد الرسمي والعملي، حكم الأسرة الأموية الملكي، وعلى صعيد المعارضة الإمامة. ولن أحاول هنا التأريخ لما واجهه عثمان أيام حكمه أو الاسهاب عن خلافة علي والمشاكل التي اعترضتها، فلذلك مكان آخر ومناسبة خاصة، وانما سأكتفي بالإشارة إلى أن استلام علي للحكم واتخاذها من الكوفة عاصمة له، جعل حزبه الذي تكون مع الأيام يمارس السلطة وينظم نفسه بعض الشيء. هذا وقد نظر هذا الحزب مع الذين آمنوا بأحقية علي بالخلافة إلى هذا الأخير بعد استلامه الحكم، نفس نظرتهم السابقة: رجل له من المؤهلات ثم القرابة ما يجعله أجدد الناس وأحقهم بالقيادة، أي أن القرابة كانت مزية من المزايا، انما لم تكن بحال من الأحوال المنطلق والقاعدة الأساسية. وبعد اغتيال علي، ووصول معاوية إلى أن يكون أمير المؤمنين كما كان أبوه سيد أهل الجاهلية حرمت شيعة علي (حزبه) من الحكم، وغدا أفرادها رجال المعارضة الملاحقون من قبل السلطة. وقامت جماعة الشيعة بمبايعة الحسن بن علي خليفة بعده، لكن الحسن تنازل لمعاوية ثم ما لبث أن اغتيل، فتوجه الشيعة بأبصارهم نحو أخيه الحسين. وفي خلال هذا الوقت ثبت في أذهان الناس

أن الخلافة حق لعلي وأولاده، فبعد فاجعة كربلاء لم ير بعض الشيعة غضاضة بالاعتراف
بمحمد بن الحنفية كصاحب حق في الخلافة، وكان هذا شعار المختار وأتباعه. وبعد
انخفاق
ثورة هذا الأخير أجمع غالبية الشيعة على حصر الحق الخلافي في أولاد علي من زوجته
فاطمة بنت النبي، ذلك أن تطورا كبيرا قد ألم بالفكر الشيعي من كافة الجوانب،
وغدت
القراة هي العمود الفقري لحق الحكم والقيادة، وهذا الحق ثابت بالنص والتعيين،
ومحاط بخصائص ومزايا. فالنبي كان خاتم الأنبياء وهو عند وفاته لم يورث النبوة
وانما ورث قيادة الأمة لعلي، وهذا ورثها لأولاده من بعده. ومع وفاة النبي انقطع
الوحي لكن النبي كان قد تدارك ذلك بأن أعطى عليا علما خاصا، وعلي - الذي
وصف
دائما بالعلم - ورث هذا العلم لابنه وهكذا.
وعلى هذا نجد انه بعد استيلاء معاوية على السلطة حدث تطور كبير في الخلافة وإمارة
المؤمنين، فقد أصبح رأس السلطة ملكا أو أشبه بالملك، مع احتفاظه بلقب أمير
المؤمنين دون سواه من أصحاب السلطة، وصار زعيم المعارضة اماما. كذلك تطورت
فكرة
الإمامة تطورا كبيرا، فقد حدث انشقاق بين صفوف الحزب الشيعي، بحيث طورت
كل جماعة
فكرة الإمامة تطورا خاصا وحددتها بما شاءت وبما اقتضت الأحوال.

بعد مصرع عثمان، الذي أخفق في تحمل مسؤوليات الحكم بعد خليفة قوي هو عمر بن الخطاب،
شعر مركز الحكم مرة أخرى، وعادت الأزمة من جديد تفجر صراعات وتثير تناقضات لا حد لها، وهي أزمة فاقت كثيرا في خطورتها وأبعادها الأزمة الأولى التي انتهت في السقيفة. ذلك أن مقتل الخليفة في أعقاب ثورة دموية قام بها الجند العرب في الأمصار،
لم يكن حدثا عاديا يمكن أن يمر دون أن يخلف رواسب ستصبح متأصلة في جسم الدولة الناشئة، فتهدد وحدتها بين الحين والآخر، فهو حدث ترك تأثيره العميق على مجرى التاريخ الاسلامي كله، وجعل للسيف الكلمة الفاصلة في أمور الحكم (١). ولعل ما ينسب إلى عثمان بعد اشتداد وطأة المحاصرين على داره يعبر عن هذه الحقيقة حين قال:
فوالله
لئن قتلوني لا

(١) فلهوزن: تاريخ الدولة العربية، ٥٠.

يتحابون بعدي أبدا ولا يصلون بعدي جميعا، ولا يقاتلون بعدي عدوا (١).
وإذا كان هدف الثوار الذين قادوا انقلابهم على عثمان تحرير الخلافة من طغيان
العائلية والاحتكار لمغانم الحكم، فإنهم قضوا بحركتهم دون قصد على آخر ما تبقى
من

نظام الشورى الذي تحول إلى ملكية مطلقة في عهد معاوية (٢).
ظلت عاصمة الخلافة تعيش في غليان لعدة أيام، بانتظار من يخلف عثمان في الخلافة..
ولم تكن المسألة بسيطة في ظروف حرجة كهذه لان مسؤوليات ضخمة ومهمات
خطيرة كانت

تنتظر الحاكم الجديد وكان لا بد ان يبت بها سريعا قبل أن يحترق بنار الحكم. وعلى
ذلك لم يكن مستغربا أن يبتعد بعض كبار السياسيين عن المدينة بعدما أدر كوا خطورة
الوضع، تاركين معالجة الأزمة لعلي المرشح الأوفر حظا حينئذ للخلافة والذي كان قد
بدأ يمارس بعض اعمالها قبل مقتل عثمان (٣). وتردد علي نفسه في قبول هذا المنصب
حين

توجه اليه الثوار وعرضوه

(١) ابن كثير: ٧ / ١٨٠.

(٢) بيضون - زكار: تاريخ العرب السياسي، ٧٦.

(٣) ابن كثير: ٧ / ١٧٧.

عليه بعدما رأوا ميل الغالبية العظمى اليه. ولكن تردده زال أمام اصرار الثوار على بيعته وربما لشعوره بأن التهرب من الحكم في مثل هذه الظروف خيانة للأمة، وللعقيدة،

فقد كانت فترة حاسمة في تاريخ الاسلام، فترة في أشد الحاجة إلى رجل قوي كعلي، ارتبط

تاريخيا بالاسلام منذ ظهوره. وثمة شيء آخر هو ان عليا كان السياسي الذي يحظى بتأييد الغالبية في المدينة والزعيم الذي يمكن ان يتفق عليه بقية الزعماء. اجتازت الأزمة بعض خطورتها بتولية علي مهام الخلافة، ولكن الأمور في عهد الخليفة الجديد سارت في اتجاه أكثر تعقيدا وأخذت الاحداث تتلاحق بصورة عجيبة. فقد كان هناك

أكثر من عائق يعترض هذا الخليفة ويمنعه من القيام بمهامه لا سيما في مجال التغييرات التي كان لا بد من اجرائها لإزالة رواسب الحكم السابق. فقد كان عليه أن يوجد حلا لجميع المشاكل التي أثيرت في عهد عثمان وأدت إلى مقتله.. وهذا معناه الاصطدام بعدد من كبار الصحابة ورجال الاسلام الذين أصابوا حدا بعيدا من الثراء زمن الخليفة السابق، ومن الطبيعي أن تتعارض مصالحهم مع الخليفة الجديد المعروف عنه

المثالية وشدة التصلب في الرأي.

والحقيقة ان مهمة الخليفة الجديد كانت على جانب كبير من الخطورة، ذلك أنه لم يكن يحظى بتأييد كل القوى السياسية في الدولة يضاف إلى ذلك أن بعض الذين بايعوه أخذوا يرفضون عنه ويتطلعون كل بدوره إلى الإفادة من الظروف والوصول إلى مكاسب معينة. ومن المدهش حقا أن نرى اثنين من الصحابة الكبار هما الزبير وطلحة اللذين ما انفكا يكيدان ضد الخليفة السابق، أول من ينقلب على علي، ويصل الامر بهما إلى اتهامه بالوقوف وراء مقتل عثمان.

بدأ علي أولى مهماته الكبيرة، بعزل ولاية الأقاليم وكانوا موضع السخط والتذمر ووضع مكانهم مجموعة جديدة تتمتع بثقة وتنسجم مع سياسته (١). وقد نفذ الجميع أوامره الخليفة باستثناء والي الشام معاوية الذي اتخذ من قضية الخليفة المقتول عثمان ذريعة لعدم الاعتراف بعلي، فافتتح بذلك صفحة جديدة دامية في تاريخ الحرب الأهلية التي شهدتها حينئذ العالم الاسلامي.

وكان علي بدوره يدرك جيدا أبعاد المشكلة ويعرف ان القضاء على خصمه القوي المتمرس في المنطقة الشامية

(١) اليعقوبي: ٢ / ١٥٥.

ليس بالأمر السهل. ولكن الشام لم تكن كل هموم الخليفة الجديد، فقد كان هناك أكثر من منتحل لقضية عثمان، تصدى لعلي وراح يزرع في دربه المتاعب. ففي الحجاز ناوئه الزبير وطلحة و كانا أصلا من أصحاب الطموح للخلافة، وقد أيدا عليا أول الامر ثم ثارا عليه بعد تعيين ولاية الأقاليم الجدد دون أن يكون لاي منهما نصيب (١). وانضمت عائشة التي كانت تحقد على علي منذ أيام النبي إلى فريق الساخطين بزعامة طلحة والزبير (٢) وكانت غير بعيدة عن مجرى الاحداث التي أودت بالخليفة السابق، ثم انسحبت إلى مكة، بعد شعورها بأن عليا سيكون الخليفة، تعمل على تجميع القوى ضده، وتستغل في نفس الوقت لعبة التشكيك بموقف الخليفة الجديد من قتلة عثمان. واجتمع الساخطون الثلاثة في مكة، ثم غادروها إلى العراق بعد أن أدركوا صعوبة مناخرة الخليفة في الحجاز ونجحوا في اقناع البصرة بالانضمام إلى حركتهم. ولكن هذه الحركة لم تكلف الخليفة كبير عناء، فسرعان ما خرجت قواته من المدينة (٣٦ هجري / ٦٥٦ م) وتمكنت من إخضاع الثائرين دونما صعوبة في معركة الجمل التي سميت

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ١ / ٤٩.

(٢) Perier Vie Dal - Hadjadj ibn yousof, P ١٠

بهذا الاسم نسبة إلى الجمل الذي كانت تمتطيه عائشة أثناء المعركة (١).
على أن هذه الحركة برغم فشلها السريع، نجم عنها نتائج على جانب من الأهمية.
ذلك أن

معركة الجمل أدت إلى انتهاء مدينة الرسول كعاصمة سياسية وتحويلها إلى مدينة ذات
مركز ديني بحت وأصبحت الكوفة عاصمة الدولة الجديدة خلال الفترة القصيرة التي
قضاها

علي في الحكم ومن ثم المركز الأول لنشاط الحزب الشيعي طوال أجيال عديدة. كما
كانت

معركة الجمل أول معركة في الاسلام يقودها خليفة بنفسه ضد اخوان له في العقيدة
(٢).

وكان على علي وهو الشديد الايمان أن يوجد حلا لذلك ويستن تشريعا خاصا عرف
فيما

بعد بتشريع قتال أهل القبلة جاء فيه: ليس على الموحدن سبي ولا يغنم من أموالهم
الا ما قاتلوا به وعليه (٣).

وإذا كانت حركة المعارضة الحجازية قد لاقت الفشل سريعا في البصرة، فان حركة
أشد

خطورة كان على الخليفة

(١) قدوره: عائشة ٢٥٥ - ٢٦٠.

(٢) لويس: العرب في التاريخ ٨٤.

(٣) الدينوري: الاخبار الطوال ١٤٤ - ١٤٥.

محاربتها في الشام حيث معاوية العامل القوي والولاية المنضبطة والجيش المنظم. فبعد فراغه من موقعة الجمل وجه علي من مركزه الجديد في الكوفة، الدعوة إلى معاوية لمبايعته واعلان الولاء له مع التهديد بأنه سيلجأ إلى قتاله إذا ما استمر في مخالفته والخروج على ارادته (١). ولكن هذه الدعوة كما توقع الخليفة نفسه ومعه كبار معاوينه (٢) اصطدمت بتصلب من معاوية واصرار منه على تسليم المسؤولين عن مقتل عثمان. ولم يكن هذا الاصرار سوى تبريرا لخروجه على الطاعة واخفاء لما يخطط له من وراء هذه الحملة، وهو منطق كان من الطبيعي أن يرفضه علي أو أي حاكم آخر، فهو الخليفة والمسؤول الأول، واليه يرجع المتخاصمون فيحكم ما بينهم. وبدأت الحرب أخيرا في صيف ٣٦ هجري / ٦٥٧ م وكان سهل صفين، المدينة الفراتية القديمة مسرحا لها، وقد شهدت عدة معارك طاحنة كان يرافقها حملات دعائية مركزة من الطرفين فضلا عن الحرب النفسية التي كان الهدف

(١) الطبري: ٥ / ٢١٥.

(٢) ابن الأثير: ٣ / ١٤٠.

منها تدعيم المعنويات واكتساب أكبر عدد ممكن من عناصر الجيش الآخر. وكان سير المعارك الأولى يتجه لصالح العراقيين الذين أصبحوا على وشك الانتصار إلى أن جابهتهم المصاحف مرفوعة على أسنة الرماح، وطرح شعار التحكيم للنظر في مسألة الخلاف بين الطرفين. فاستجاب علي وهو مكره (١)، وتوقف القتال بعد جدل عنيف بين كبار قواده. وكان التحكيم مسرحية لتميع الموقف أخرجها عمرو بن العاص أحد كبار البارزين في معسكر معاوية. والحق ان استعدادات معاوية لم تتم في الاطار العسكري فقط، وانما في الاطار السياسي أيضا حيث أحاط نفسه بمجموعة من الرجالات الذين عرف عنهم الدهاء والبراعة في تغيير المواقف، ومن هؤلاء عمرو بن العاص الذي انضم إلى معاوية بعد مساومات طويلة جرت بين الرجلين (٢). وأرغم علي على القبول تحت ضغط الأثرية في صفوف جيشه التي كان يعوزها الانضباط وتفتقر إلى روح الحماسة، فالجبهة العراقية كانت غير متماسكة وتتفجر بالتناقضات بينما كان الامر على عكس ذلك في الجبهة

١٢ Perier Vie Dal - Hadjajadj ibn yousof, P (١)

(٢) الطبري: ٥ / ٢٣٢

الشامية، حيث كان وقف القتال انتصارا للشاميين دفع عنهم الهزيمة وجعل من زعيمهم معاوية في مركز الند والمنافسة لعلي في الخلافة.

وكما أرغم علي على القبول بمبدأ التحكيم، أرغم علي اختيار ممثله في المفاوضات وهو

أبو موسى الأشعري. بينما كان ممثل معاوية بطل عملية رفع المصاحف عمرو بن العاص،

الذي أوصاه معاوية بقوله: ان أهل العراق أكرهوا عليا على أبي موسى، وأنا وأهل الشام راضون بك، وقد ضم إليك رجل طويل اللسان قصير الرأي، فأخر الحز، وطبق المفصل

ولا تلقه برأيك كله (١). والتقى الحكمان بأذرح في دومة الجندل (٣٧ هجري / ٦٥٩ م)

ووضح منذ بدء المفاوضات انعدام التكافؤ بينهما، وما لبث الاجتماع ان ارفض دون نتيجة، وعادت الأمور إلى ما كانت عليه قبل التحكيم مع فارق واحد ان مركز علي أصبح

أكثر تضرعا حيث خرج من معسكره مجموعة من اثني عشر ألفا محتجة على مبدأ التحكيم،

رافعة شعار لا حكم الا لله. وهي المجموعة التي عرفت بالحوارج وكان لثوراتها فيما بعد تأثيرا كبيرا في التاريخ الاسلامي. ولقد أحدث تمرد هؤلاء ارباكا في جيش علي اضطر هذا

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢ / ٣٩٢.

الأخير ان يوقف الزحف إلى الشام من أجل القضاء عليهم. وقد أدى هذا الاقتتال
الجانبى إلى هدر طاقات الجيش العراقى فى الوقت الذى أتاح الفرصة لمعاوية ان يستفيد بتعزيز
مواقعه التى تعدت الدفاع إلى الهجوم.
.. وفجأة انهارت الجبهة العراقية بعد أن دأب على ترميمها واستكمالها بعناصر
متجانسة موحدة الولاء لوضع الأمور فى نصابها.
ولكن مشاريع الحرب التى أريد لها ان تفتح مرة أخرى أبواب الصراع بين الشام
والعراق،
أحبطها معاوية قبل أن تخرج إلى النور. وفى غمار ذلك تسقط ولاية مصر المهمة بيد
عمرو
بن العاص - أحد أبرز المتحالفين مع معاوية فى صفين - ويقتل على غيلة فى مسجد
الكوفة
(٤٠ هجرى - ٦٦١ م)، فكانت الضربة القاتلة للحزب الشيعى بغياب قائده المؤسس.
وليس من
العسير على أى متتبع لشريط الاحداث حينئذ ان يلمح شبح معاوية وراء تلك المؤامرة
وقد
تلوثت أصابعه بالدماء. وإذا أصبحت الصورة أكثر وضوحاً، تحدد الموقف بصورة شبه
نهائية لمصلحة الحزب الأموى.

الباب الثاني.. الأحوال السياسية منذ اغتيال علي إلى كربلاء...

(٤٨)

بين الحسن ومعاوية
بويح الحسن بالخلافة بعد اغتيال أبيه. وكأي حاكم جديد يتولى السلطة، أعلن برنامج
السياسي في مسجد الكوفة، وكانت أبرز خطوطه مشكلة الصراع مع معاوية، ذلك
الصراع الذي
وجد الحسن نفسه منقادا اليه تلقائيا لاعتبارات عقائدية وسياسية.
وعلى عكس ما يعتقد البعض من أن هذا الخليفة كان عازفا عن استئناف الحرب مع
معاوية،
وأه حين سار لقتال هذا الأخير كان تحت ضغوط من جماعته الكوفيين (١). فالحقيقة
الثابتة أن الحسن واجه هذا الامر بمنتهى الجدية والحزم، وكان أول ما فعله بعد وصوله
إلى الحكم هو الاهتمام بجيشه، فدفع رواتب جنوده (٢) وعمل على اعدادهم اعدادا
لائقا
لحرب مصيرية مقبلة. وهذا الجيش

(١) الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ٦٨.
(٢) الأصفهاني: مقاتل الطالبين ٣٤.

هو نفسه الذي أعده علي قبل اغتياله للزحف به إلى الشام. ولعل بعض المؤرخين قد خلطوا بين ما أشاروا إليه من تردد الحسن في مجابهة هذه المشكلة وبين حذره الذي غلب على تصرفاته. فالتردد شيء والحذر شيء آخر. وهذا الموقف كان نابعا في المقام الأول من عدم ثقته بالزمرة السياسية التي حاطت به وكان لا بد من الاعتماد عليها في مطلق الأحوال (١). فهي مركز الثقل في الكوفة بما تمتلكه من رجال وأموال، وهي في الواقع تقرر الموقف الذي تريد (٢) على ضوء ما تراه منسجما مع مصالحها وامتيازاتها في المدينة. فالحسن كما نعرف عاش عن كذب تجربة الحرب في صفيين وما صاحبها من مؤامرات، وخبر جيدا أساليب معاوية في امتلاك قلوب هذا النوع من الرجال (٣) الذي كانت مصالحه فوق المبادئ وفوق المثل. ولم يكن

(١) راجع صلح الحسن للشيخ راضي آل ياسين ٨٣ وما بعدها.
(٢) راجع صلح الإمام الحسن للسيد محمد جواد فضل الله ٥١ وما بعدها.
(٣) كان من أبرز هؤلاء: الأشعث بن قيس، عمرو بن حريث، معاوية بن خديج، المنذر بن الزبير، شيبث بن ربعي، إسحاق بن طلحة، وعمر بن سعد.

مفاجئاً أن يتحول هؤلاء الذين عرفوا بالاشراف فيما بعد إلى مطية للنظام الأموي يقاتلون في صفوفه، نفس الحزب الذي كانوا من أركانه أيام علي والحسن. فالحسن إذا لم يساوره أدنى تردد أو تخاذل في موقفه من الحرب مع معاوية، ولكنه كان

شديد الحذر من جماعته، غير واثق من ولائهم واقتناعهم بفكرة الحرب. ولا بد لنا هنا من أن نتصور أية مهمة مستحيلة كانت بانتظار الحسن ليخوضها بجيش مفكك العناصر، مضطرب

الولاء، موزع الانتماءات قبليا وعشائريا.

بهذه التركيبة العجيبة من المقاتلين التي لم يدخلها سوى قلة مؤمنة ومخلصة، سار الحسن لقتال الجيش الشامي القوي والانضباطي - الذي وصف معاوية عناصره يوماً بأنهم

أطوع جند وأقلهم خلافاً (١). وهو يدرك جيداً ان المتاعب لن تأتيه من أعدائه فقط، بل من الانتهازيين داخل جيشه أيضاً الذين يظهرون غير ما يسرون (٢)، فكان ذلك يزيد من

شجونه ويزيد الأمور تعقيداً.

(١) راجع كتاب تاريخ العرب السياسي (بيضون - زكار): ٨٢.

(٢) السيد محسن الأمين: أعيان الشيعة ٤ / ٢٢.

وكان معاوية قد أدرك بدوره نقطة الضعف هذه في جيش الحسن فاستغلها ببراعة وأخذت مناوراته ودسائسه تفعل فعلها في أوساط المترددين وهم كثرة، وتمكن من تأليب كبار القواد عليه وتخذيلهم عنه بشتى المغريات. ولعل من أقسى ما تعرض له الحسن تواطؤ قائده وابن عمه عبيد الله بن عباس مع معاوية وتسلمه إلى معسكره ليلاً ومعه القوة الأساسية من الجيش (٢). وأخذت الأوضاع تتخرج أكثر فأكثر في جبهة الحسن الممزقة حتى وصل الامر إلى حد بأن تجرأ عليه بعض جنده فهاجموه في فسطاطه (٣)، وكن له رجل متطرف من بني أسد اسمه الجراح بن سنان فأصابه بجرح بليغ في فخذه (٤). فترجع الحسن حينئذ إلى المدائن لينشغل في مداواة جراحه. كل هذا في الوقت الذي كان فيه معاوية ناشطاً في محاولة استقطاب المزيد من رجالات الحسن (٥) وفي تصعيد حملاته النفسية في صفوف أعدائه.

-
- (١) الطبري: ٦ / ٩٢.
(٢) الأصفهاني: مقاتل الطالبين: ٤٠ - ٤٢.
(٣) الدينوري: الاخبار الطوال: ٢٣.
(٤) اليعقوبي: ٢ / ٢٥١.
(٥) أعيان الشيعة: ٤ / ٤٢.

وتحت تأثير هذه الظروف المأساوية المؤلمة، ولما آل اليه وضع الجيش العراقي، وفي غمرة هذا الجو المشحون بالتشاؤم في إمكانية الصمود والامل بالنصر، استجاب الحسن
أخيرا وهو مرغم لعروض معاوية من أجل الصلح بعد أن أبدى هذا الأخير استعداداه للموافقة على جميع ما اشترط عليه (١).
أثارت قضية الحسن ولا تزال الكثير من الجدل. فمن مبالغ متطرف في تقدير مواقفه واجلالها، إلى منتقد ظالم اكتفى بالنظرة السطحية إلى مجريات الاحداث وتغاضى عن كل
الايجابيات. وبالنتيجة كانت شخصية الحسن عرضة لتقويم خاطئ وغير منصف.
والحق أنه وجدت هناك أسباب لا ينبغي لأحد تجاهلها في هذا المجال لأنه كان لها الدور المؤثر
في عملية الصراع الذي دار بين الحسن ومعاوية أو بين العراق والشام باتخاذها بعدا إقليميا بدأ في صفين وتركز بعد تنازل الحسن ثم تعمق في كربلاء وتحول إلى صراع تقليدي على مدى بعيد من الزمن. ومن هذه الأسباب:
١ - فقدان القيادات الشعبية المخلصة التي برزت

(١) الطبري: ٦ / ٩٣.

مع علي، القادرة على تحريك الجماهير وضبطها، ابتداء بعمار بن ياسر وانتهاء بالأشتر النخعي، فقد أفلت الزمام في جيش الحسن لافتقاده إلى القيادات الفعلية، وهذا الشيء نفسه سيتكرر مع مسلم بن عقيل في الكوفة.

٢ - أدرك الحسن ان موازين القوى غير متكافئة بينه وبين أعدائه خاصة بعد التخلخل الذي أصاب جيشه وظهور الانتهازية فيه. من هنا رجح خسران المعركة عسكريا ووجد ان

المخاطرة بجيش ضعيف وممزق ستؤدي إلى ضرب الحزب الشيعي بكامله وانهايار البقية

الباقية من رجالاته المخلصين. وكان هذا بدون شك تقديرا سليما وبعد نظر من جانب الحسن. وعلى ذلك سنجد ضمن ما اشترطه على معاوية بعد توقيع الصلح اعلان العفو العام،

لأنه لم يشأ أن يدع تلك النخبة (١) من الحزب في مواجهة معاوية دون أية ضمانات.

(١) كان من أبرزها: حجر بن عدي الكندي، وقيس بن سعد بن عبادة، وسليمان بن صرد وغيرهم.

معاوية وتحويل الخلافة إلى ملك وراثي
بعد تنازل الحسن، سقطت آخر معاقل الخلافة الراشدية، وبدأت مرحلة جديدة في
تاريخ
الاسلام مختلفة تماما في أبعادها ومناهجها عن المرحلة السابقة. وغدت دمشق مركز
الحكم وعاصمة الخلافة الأموية التي أرسى قواعدها معاوية. ولقد كان هذا الأخير
يمتلك
طموحا بعيدا، فانصرف بكل ما أوتي من جهود إلى بناء مجتمع جديد، مطبوع
بشخصيته
الميكافيلية، ومتأثر برواسبه القبلية إلى أبعد حدود التأثير.
كانت مشكلة الحكم من أهم ما التفت إليه معاوية، ولم يقعه بلوغ الخلافة وتحقيق
أحلامه في السلطة عن التفكير بها ومحاولة الوصول إلى حل جذري لها. وقد رأى في
تجارب
الخلفاء الذين سبقوه، والأزمات التي مرت بها الخلافة، مسوغا لاجداث تغييرات
أساسية
في نظام الحكم، بتحويله من نظام قائم على الشورى إلى ملكي أوتوقراطي أو بمعنى
آخر
من حكم اسلامي ديني إلى سياسي دنيوي (١).
وكانت أبرز جوانب هذه المشكلة برأى معاوية، ما

(١) لويس: العرب في التاريخ ٨٩.

يمكن ان يتمخض عن هذه التغييرات من معارضة، ربما تؤدي إلى حرب أهلية.
فالحسن منافسه
لا زال في المدينة ووراؤه حزب كبير، لن يقبل بأي اجراء يجعل من الخلافة ملكا
متوارثا لبني أمية، فضلا عن أن ذلك مناقض للمعاهدة التي عقدت بين الحسن
ومعاوية (١). وكذلك فان الأحزاب الأخرى ستنفر من هذه الفكرة وستقابلها بالرفض.
ولكن معاوية لا تقلقه كثيرا هذه التصورات فهو يعرف جيدا ماذا يريد، ولديه من
اخلاص جنوده الشاميين ما يدفعه لتنفيذ مخططاته مهما كان السبيل إلى ذلك. بدأ أولا
بتصفية الحسن فأزاح بهذا منافسا رئيسيا من طريقه (٢). وانتشر رجاله في أقاليم
الدولة يبشرون بفكرة الوراثة ويمهدون لقبول الناس بيزيد خليفة بعد أبيه. وكانت مهمة
صعبة أمام هؤلاء، لم تقتصر على الاقناع بالمبدأ فقط، ولكن أيضا حول صلاحية
الشخصية
المرشحة لولاية العهد التي لم تكن بنظر الناس مؤهلة لتولي منصب حساس كالخلافة.

(١) كان من بنودها: ان يكون الامر للحسن بعد معاوية. فان حدث شئ للحسن فلاخيه
الحسين، وليس لمعاوية ان يعهد به إلى أحد: صلح الحسن ٢٥٣ - ٢٥٤. خالد محمد خالد:
أبناء الرسول في كربلاء ٨٧.
(٢) المسعودي: مروج الذهب ٢ / ٤٢٧.

على أن ولاية العهد رغم ما أثارته من استهجان في أوساط المسلمين، فقد تمكن معاوية

بواسطة أجهزته من أخذ البيعة ليزيد بغير صعوبة فيما عدا إقليمين كان يعرف هو سلفا موقفهما وهما: العراق والحجاز. الأول لرفضه الخلافة الأموية أساسا والتزامه بقضايا مختلفة تماما، تحركها عوامل سياسية وإقليمية واضحة. والثاني كانت لديه نفس

الاعتبارات تقريبا مع فارق واحد يعطي له أهمية خاصة بالنسبة لمعاوية. فهو مهد الإسلام ومركز العاصمة الأولى للخلافة وملتقى كبار رجالات الإسلام الذين تمتعوا بالاحترام والتأييد الشعبي الواسع.

وإذا كان العراق الذي افتقر حينئذ إلى القيادات الفعلية، قد أرغم بمعظمه على البيعة تحت وطأة السلطة الحديدية التي كان على رأسها زياد بن أبيه، فإن الحجاز كان له موقفا أشد صلابة عندما رفض ثلاثة من زعمائه الكبار البيعة ليزيد وهم: الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير (١).

كان هؤلاء - وهم جميعا أبناء صحابيين كبار، تولى اثنان منهم (عمر وعلي) الخلافة والثالث (الزبير) نازع عليا عليها وقتل في معركة الجمل - يحظون بمكانة عالية

(١) ابن الأثير: ٢ / ٢٥٢.

في الحجاز لا سيما الحسين الذي كان أكثرهم قدرة على تحريك الناس ضد معاوية والأمويين. ومن أجل ذلك قرر معاوية أن يجابه الموقف بنفسه في الحجاز ويخوض معركة

ولاية العهد مباشرة، فذهب إلى المدينة على رأس ألفي فارس وألقى في مسجدها خطبة أشاد

فيها بشخصية يزيد المؤهلة - بنظره - لتولي الخلافة، ثم غادرها إلى مكة حيث انتقل إليها الزعماء الثلاثة لبحث معهم مسألة ولاية العهد وليأخذ البيعة منهم طوعا أو كرها. وكان هؤلاء قد كلفوا ابن الزبير محاورته باسمهم فرد عليه وأنكر محاولاته في خرق الشرعية والخروج على سنة الأوائل من الخلفاء. وكان معاوية حادا في جوابه لابن

الزبير إذ قال له مهددا أقسم بالله لئن رد علي أحد منكم كلمة في مقالي هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه فلا ييقين رجل الا على نفسه (١).

وكان أيضا مناورا كعادته حيث جمع الناس في المسجد وخطب فيهم: ان هؤلاء - ويقصد

بهم الثلاثة الممتنعين - قد رضوا وبايعوا ليزيد، فبايعوا على اسم الله (٢). وكانت مدهامة معاوية لهؤلاء الزعماء واحراجهم

(١) الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية ١ / ٨٩.

(٢) ابن الأثير: ٢ / ٢٥٢.

باعلان بيعتهم دون أن يأخذ منهم تصريحاً بذلك نهاية المطاف بالنسبة للجدل الذي
أثير

حول ولاية العهد. ولم يكن أمام زعماء الحجاز الا التسلح بالصبر والانضمام إلى فريق
الساخطين الذي أخذ حجمه يزداد يوماً بعد آخر، بانتظار الظروف الملائمة للتعبير
بالوسائل السلبية عن الرفض المطلق لنظام الوراثة في الحكم الذي ابتدعه معاوية.
الأحوال السياسية داخل العراق

لنعد إلى الوراثة قليلاً، إلى بدايات التحرك الشيعي في العراق بعد استسلام هذا
الأخير إلى معاوية. وهو استسلام لم يكن في جوهره أكثر من استجابة للأمر الواقع
واعتراف اكرهي بالخلافة الأموية. فقد كانت هذه التغييرات السياسية تحمل في
صميمها،

الكارثة للعراقيين الذين التزموا مصيرياً بالقضية العلوية ووقفوا إلى جانب علي الذي
جعل من عراقهم مركز الحكم في الاسلام، بما يعنيه ذلك من أهمية سياسية واقتصادية
وما

يعكسه من شعور بالتفوق، أصبح الآن أكثر وضوحاً من قبل.
وإذ ينقلب الموقف وتتحطم الأحلام وتنهار المكاسب، كان لا بد من تقويم لما جرى
ووضع

الأمر في نصابها. وفي غمرة ذلك وجد العراقيون أنفسهم يتحملون وزر هذا المصير
الذي

آلوا إليه، ويتبعون بأسى الصورة القاتمة

لمستقبلهم السياسي في ظل السيادة الأموية. ولم يكن هنالك أدنى ريب في أن أية مقارنة

بين النظام السابق والنظام الجديد ليست في بال على الاطلاق. فمعاوية ما كاد يستتب له الامر في العراق، حتى انهارت تلك الصورة الزائفة التي اقترنت بها شخصيته، القائمة على الحنكة والدهاء.. فإذا به في العراق انسانا آخرا ونموذجا مختلفا. وكان معاوية يعرف جيدا أن أقلية ضئيلة فقط بايعته ربما على قناعة أو سعيًا وراء مصلحة خاصة. أما الغالبية فقد بايعته مكرهة وتحت التهديد. وكان يعرف أيضا أن هذه الفئة الراضية بمختلف فصائلها ستقلب عليه، إن لم يكن اليوم فغدا. أخذت ملامح السياسة الجديدة للخليفة الأموي، القائمة على التحدي والاستفزاز والمبادرة بالعنف، تتبلور بالنسبة للعراق وتوحي بأن أحداثا خطيرة سيشهدها هذا الاقليم. فقد أرسل معاوية أحد البارزين في نظامه وهو المغيرة بن شعبة، واليا على الكوفة ومعه صلاحيات مطلقة، وتوجيهات بشتم علي من فوق منبر المسجد، ومراقبة تحركات

زعماء الشيعة وملاحقة المتحمسين منهم للقضية العلوية (١). ولقد نفذ المغيرة باخلاص تعليمات سيده،

(١) فلهوزن: الخوارج والشيعة ١٤٩.

ولكن بأسلوبه المرن الذي عرف عنه. فشغل الكوفيين بحرب الخوارج ودفع بصفوة زعمائهم إلى أتونها، ليصرفهم عن مقارعة السلطة وإثارة المشاكل ضدها. وقد لاقت سياسته نجاحاً نسبياً في هذا المجال، ولكن التجرؤ على مهاجمة الخليفة الراشدي لم يستسغه الكوفيون ووجدوا فيه إهانة صريحة لهم وانهاكا لقيمهم ومعتقداتهم. وكان أن اصطدم المغيرة بعدد من زعمائهم كحجر بن عدي أحد أبرز رجالات قبيلة كندة الشهيرة وأول من ثار بشدة على سياسة التجريح بالخليفة السابق، وصعصعة بن صوحان من بني عبد القيس (١) الذي نفي بأمر من المغيرة - بعد أن ضاق بمعارضته - ومات في منفاه (٢). ورغم ما أظهره المغيرة من براعة في حكم مدينة تعج بالمتطرفين من أعداء النظام الذي يمثله، فإن ذلك لم يعجب معاوية، الذي أخذ عليه تساهله مع العلويين وبشكل خاص موقفه إزاء حجر بن عدي (٣). ويحلل المغيرة هذا الموقف أمام منتقديه من أقاربه وامام معاوية (٤) بأنه تقدم في السن ولا يجب أن يتبدأ عمله في الكوفة بسفك دماء رجالها وقتل زعمائها (٥).

-
- (١) الطبري: ٦ / ١٠٦.
(٢) ثابت الراوي: العراق في العصر الأموي ١٤٠.
(٣) الدينوري: الاخبار الطوال ٢٣٦.
(٤) فلهوزن: الخوارج والشيعة ١٤٩ - ١٥٠.
(٥) الطبري: ٦ / ١٤٢.

ولم يكن شأن البصرة بمختلف عن الكوفة، فهي رغم عدم مماشاتها هذه الأخيرة بنفس الحماسة في قضاياها السياسية، فان موقفها من النظام الأموي كان معروفا ولم يتعد حدود التسليم بالأمر الواقع. لذلك لم يكن عبد الله بن عامر، الوالي المعين في البصرة، الشخصية المؤهلة، بنظر معاوية، لتنفيذ سياسته العراقية. وأخذ حينئذ يبحث عن شخصية قوية يعهد إليها بحكم العراق بكامله حيث ضاق ذرعا بسلوك المغيرة في الكوفة،

فوجد أن أفضل من يقوم بهذا الدور هو زياد بن أبيه عامل علي السابق على فارس، وكان

لا يزال يحتفظ بمنصبه ويرفض الاعتراف بمعاوية. واستطاع معاوية اقناعه بالانضمام إليه وذلك بعدما استلحقه بأسرته (١). وقد شغل المغيرة دورا بارزا في اقناع زياد بالتخلي عن رفضه للنظام الأموي والانقلاب إلى التعاون معه. ولم يلبث زياد أن صار أميرا على البصرة (٤٥ هجري) فنجح في مهمته إلى حد كبير، وأدى

لمعاوية فوق ما يتطلبه من خدمات. وكانت خطبته الشهيرة (البتراء) التي فاجأ بها أهل البصرة مؤشرا لسلوكه الجديد وبرنامجا واضحا لسياسته العراقية المقبلة التي ستمتد على كل العراق بعد وفاة المغيرة (٢) وانتقال الكوفة إليه.

(١) تاريخ خليفة ١ / ٢٤١.

(٢) تاريخ خليفة ١ / ٢٤٧، سنة خمسين للهجرة.

والامر الذي يثير الاستغراب بالنسبة لزياد، ذلك التحول المذهل من نقيض إلى آخر. فبعد ان كان من أشد المؤيدين لعلي - الذي اختاره، لكفاءاته الإدارية والسياسية، حاكما على فارس دون الالتفات إلى تصنيفه الاجتماعي - أصبح من أشد المتعصبين تطرفا

ضد العلويين، ومنسجما إلى أبعد حدود الانسجام مع معاوية في أساليبه الانتهازية (١). ففي نفس السنة (٢) التي جمعت فيها الكوفة لزياد افتتح نشاطه المعادي للشيعة بالقبض على حجر بن عدي (٣) وارساله إلى دمشق حيث جرت له تصفية جسدية مع عدد من رفاقه على يد معاوية (٤).

لم يمر استشهاد حجر - دفاعا عن مبادئه والتزاما بمواقفه التي رفض أية مهادنة على حسابها - دون أن يثير موجات شديدة من الغضب في صفوف الشيعة، خاصة في الكوفة. ولم تستطع قبضة زيادة الحديدية اسكات المعارضة التي أخذت في التبلور حينئذ. وعلى عكس ذلك

(١) إبراهيم الأبياري: معاوية ٢٤٤.

(٢) ٥١ للهجرة.

(٣) محمد جواد فضل الله: حجر بن عدي الكندي، ١٢١ وما بعدها.

(٤) تاريخ خليفة: ١ / ٢٥١.

فقد أدى مقتل الزعيم الكوفي إلى ولادة الحزب الشيعي، بأبعاد جديدة ومفاهيم سياسية وعقائدية خاصة. وفي خلال عشر سنوات أتيح لهذا الحزب أن يعبر هذه المحنة بصبر، وأن يجتاز هذا المناخ الارهابي وهو أكثر صلابة وأقوى ايماناً.

خلافة يزيد وتحرك الحسين
مات معاوية في العام الستين للهجرة، وفي نفسه شئ من الملك، بعد أن تربع على رأس
السلطة أربعين عاما كاملة نصفها كأمر والآخر كخليفة. ولعله شعر بالاطمئنان في
قرارة نفسه إلى دوام الملك واستمرارية الخلافة في أسرته بانتقال الامر من بعده إلى
يزيد. ولكن هذا الاطمئنان كان مشوبا بالقلق على مصير البنيان الذي شيده بالقوة
وبنفاذ الصبر. فلم يكن هناك أي مجال للمقارنة بين الأب، السياسي الذكي وبين الابن،
الأرعن الغارق في العبت واللهو والمجون. وشاء معاوية أن يغير هذه الصورة التي
التصقت بابنه، فأقحمه في غمار مسؤوليات أثبتت الأيام انه عاجز كل العجز عن
تحملها.

فقد أرسله حاجا إلى مكة (١) ووضع على رأس حملة القسطنطينية الضخمة. ولكن لا
فريضة

الحج صبغته بالوقار، ولا قيادة الحملة

(١) خالد محمد خالد: أبناء الرسول في كربلاء ٩٠

جعلت منه قائدا عسكريا لامعا. فالصورة التي في أذهان الناس ظلت كما هي تأتي أن تتغير.

تسلم يزيد الخلافة إذا، ومعها ميراثا ثقيلًا من المشاكل، كان معاوية قد نجح في تجميدها أو تأخير انفجارها. ومن أبرز هذه المشاكل، مشكلة الخلافة نفسها. فهناك أكثر

من طامح يتحين الفرصة المناسبة للوثوب في سبيلها. ففي مكة اعتكف عدد من زعماء العرب

من أبناء الخلفاء السابقين وغيرهم، احتجاجا على خلافة يزيد وتكريسا لعدم اعترافهم بها. وفي الكوفة، مركز الحزب الشيعي الذي سار شوطا مهما في عملية البناء التنظيمي، اتخذت الأمور بعدا آخرًا تعدى الاحتجاج والرفض إلى الثورة الشعبية. والواقع ان ملامح التحرك في الكوفة بدأت في وقت سابق أيام معاوية. فقد ذهب أكثر من

وفد من الحزب إلى المدينة وبحث مع الحسن في شأن الثورة. وها هو سليمان بن صرد

الخزاعي يخاطبه باسم أحد الوفود: فإن شئت فأعد الحرب جذعة، وأذن لي في تقدمك إلى

الكوفة. فأخرج عنها عاملها وأظهر خلعه، وتنبذ إليهم على سواء ان الله يحب الخائنين (١).

(١) دائرة المعارف الاسلامية الشيعية ٢ / ٤٥.

ولكن الحسن كان يرى حينئذ أن الأسباب التي دفعته إلى التنازل لا زالت قائمة،
والظروف
نفسها لا زالت مهيمنة وسط جو من الارهاب أكثر ما يصيب العراق، الخزان البشري
الأول
لاية ثورة شيعية مرتقبة.
ولنستمع إلى قول الحسن امام ممثلي الحزب:
ما أردت بمصالحتي معاوية ألا أن أدفع عنكم القتل عندما رأيت من تباطؤ أصحابي عن
الحزب (١).
أو قوله:
... فصالحت بقيا على شيعتنا خاصة من القتل، ورأيت دفع هذه الحرب إلى يوم ما
(٢).
كان الحسن صادقا في تصوير الموقف إلى حد كبير. فهو كزعيم لهذا الحزب يتحمل
مسئولية
أي تحرك قبل غيره. وأي فشل في ظل هذه الظروف قد يؤدي إلى تدمير الحزب
والقضاء عليه
نهائيا.
وكان هذا رأي الحسين أيضا حين تسلم زعامة الحزب فأثر عدم الثورة في عهد
معاوية،
والانصراف إلى تنظيم الحزب واعداد عناصره اعدادا جيدا بحيث يصبحون

(١) الدينوري: الاخبار الطوال ٢٢١.

(٢) الدينوري: الاخبار الطوال ٢٢٠.

على قدر من النضج والوعي قبل القيام بأي نشاط علني.
ولا بد من الاعتراف بأن مهمة الحسين لم تكن سهلة أبدا. لان أجهزة معاوية كانت
على

جانب كبير من الخبرة والحذر الامر الذي كان يجعل من اتصالات الحسين أمرا عسيرا
للغاية، خاصة في الفترة التي خضعت فيها الكوفة لزياد بن أبيه. وكان العامل الجغرافي
يزيد الأمور تعقيدا، بابتعاد قواعد الحزب عن قياداته بحيث سيكون لهذا العامل الأثر
الأكثر أهمية في اخفاق ثورة الحسين وغيرها من الثورات الشيعية فيما بعد.
بعد تسلم يزيد زمام الحكم أحس الجميع أن ثوب الخلافة فضفاضا عليه، حيث كان
ينقصه

الكثير من ذكاء أبيه وحساباته الدقيقة للأمور، وكان ذلك فرصة مناسبة للحزب الشيعي
في الكوفة بأن يتحرك.. فجرت اتصالات مع زعيم الحزب في الحجاز، وكان حينئذ
يتعرض

لمجابهة من قبل ممثل السلطة الأموية في المدينة الوليد بن عتبة، الذي تلقى أوامر
الخلافة بالسعي إلى انتزاع الحسين ورفاقه الرافضين بأي ثمن.
ولا يتخلى الحسين عن فطنته وبعد نظره، وهو ذاهب لمقابلة الوليد على رأس مجموعة
مسلحة من أتباعه تحسبا لأي طارئ (١). وبجراًة متناهية رد على الوالي

(١) الطبري: ٦ / ١٨٩.

بحضور شيخ بني أمية مروان بن الحكم: ان مثلي لا يعطي بيعته سرا، ولا أراك تجتري بها مني سرا دون أن تظهرها على رؤوس الناس علانية (١).
أدرك الوليد ما وراء كلمات الحسين من اصرار على الرفض، ولم يشأ أن يتمادى في الحوار
معه أكثر من ذلك، متجاهلا نصيحة مروان الذي أشار عليه: احبس الرجل ولا يخرج من
عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه (٢).... وفي صباح اليوم التالي كان الحسين قد رحل إلى
مكة.

وهناك شعر بوطأة السلطة تخف عن كاهله قليلا، ولكن رحلته لم تقف عند هذا الحد.. فلم
تكن هربا من البيعة وانما مواجهة مصيرية لمسؤولياته ولقاء حاسما مع دوره التاريخي
الذي كان في انتظاره.
في مكة عاش الحسين مستغرقا في أفكاره وتأملاته لتكوين صورة واضحة للموقف النهائي.
وفي الكوفة كان أركان الحزب الشيعي يجتمعون في منزل سليمان بن صرد الخزاعي
حينما
تناهى إليهم خروج زعيم الحزب إلى

(١) الطبري: ٦ / ١٨٩.

(٢) الطبري: ٦ / ١٨٩.

مكة (١)، فقررروا أن الظروف مواتية للتحرك. فكتبوا إلى الحسين يطلبون منه القدوم وتسلم قيادة الثورة.

أخذت الرسائل تتوالى على الحسين - وأكثرها من زعماء اليمانية البارزين - وفيها الحاح بعدم التأخر. وانتظر الحسين وقتاً ريثما يستكمل دراسته للموقف، ولم يكن ذلك تردداً وإنما تحسباً لا بد منه. فخروجه على النظام الأموي بات أمراً لا جدال فيه، لأن يزيداً لن يدعه إلا إذا بايع له، وقراره بشأن البيعة لا عدول عنه فالمصادمة بينهما إذا واقعة وحتمية.

وانطلاقاً من هذا الشعور قرر الحسين إرسال أحد معاونيه وثقاته وهو مسلم بن عقيل إلى

الكوفة ليطلع عن كذب على الموقف ويمهد له الطريق. وأرسل أيضاً مندوباً آخر إلى البصرة حملته صورة عن البرنامج السياسي للثورة ورسائل إلى زعمائها أمثال الأحنف بن قيس والمنذر بن الجارود ومسعود بن عمرو وقيس بن الهيثم (٢) بهدف توسيع رقعة الثورة

وفتح أكثر من جبهة ضد الأمويين.

ولكن الأمور لم تسر في البصرة كما في الكوفة، فقد وصل مسلم هذه الأخيرة وحل في منزل

المختار بن أبي عبيد الثقفي وهو أحد زعماء الحزب الشيعي (٣).

(١) ابن الأثير: ٤ / ٨ - ٩.

(٢) خالد محمد خالد: أبناء الرسول في كربلاء ١٠٩.

(٣) الطبري: ٦ / ١٦٩.

ومن هناك أخذ يجري اتصالاته مع بقية الزعماء بسرية تامة، حتى إذا استكمل هذه الاتصالات وضمن التأييد الكافي للتحرك كتب إلى الحسين يطلب منه القدوم. غير أن استخبارات السلطة وقفت على نشاط مسلم ورفعت تقريراً عنه إلى أمير الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري، وكان معروفاً باعتداله، فرفض أن ينساق مع زبانية النظام باتخاذ أي إجراء ضد مسلم. فرفع هؤلاء تقريرهم مباشرة إلى يزيد وفيه تحذير من نشاط

مسلم ورغبة باستبدال واليهم الضعيف، بأخر قوي قادر على العنف ولا يرتبك من سفك الدماء.

وكان ذلك أول امتحان لخلافة يزيد، أثبت صحة ما قيل في شخصيته الانفعالية وفي كفاءته

المحدودة في عالم السياسة. فقد سارع إلى عزل النعمان بن بشير فوراً، وتسمية واليه على البصرة عبيد الله بن زياد والياً على الكوفة بالإضافة إلى منصبه. وكان هذا ما تمناه زبانية النظام والمستفيدين من خيراته، فهذا الرجل خريج بارز من مدرسة العنف التي كان أبوه زياد أول مؤسسها في العراق، ولعله كان أكثر تطرفاً وأشد عنفاً من أبيه.

أثبت عبيد الله أنه على استعداد دائم لاية مهمة يكلفه بها الخليفة، وكان هو على علم بتحركات الحزب الشيعي

عن طريق أحد الذين راسلهم الحسين (١). وكان هذا كافيا لاجهاض أية مبادرة من البصرة للمشاركة في التحرك. وبعد أن غادر هذه الأخيرة إلى الكوفة عين عليها نائبا عنه هو أخوه عثمان بن زياد (٢) وأوصاه باستعمال الشدة والحزم. وفي الكوفة، حيث انتقل إليها عبيد الله ملثما وعلى رأسه عمامة سوداء، أخذت الأمور تنعقد على جبهة الحزب الشيعي وتلاحقت الاحداث فيها بسرعة مذهلة. فقد كان الناس حينئذ يترقبون وصول الحسين بين لحظة وأخرى، حتى أنهم اعتقدوه ذلك الملثم الذي ظهر في الكوفة. وبعد وصوله إلى قصر الامارة أحاط ابن زيادة نفسه بالشرطة، ومن هناك أخذ يخطط لانقلابه، مستفيدا من البلبلة التي خلقها ظهوره في الكوفة. بدأ أولا بنشر جواسيسه في المدينة لمعرفة مكان مسلم بن عقيل، حتى علم أخيرا انه في منزل هاني بن عروة (٣) أحد الزعماء الشيعيين، فاستدعى هذا الأخير وسأله عن مسلم، فأنكر وجوده في بيته. غير أن ابن زياد فاجأه بالجاسوس الذي شاهده في داره (٤)،

(١) المنذر بن الزبير، ابن الأثير: ٤ / ١٠.

(٢) ابن الأثير: ٤ / ١٠.

(٣) الطبري: ٦ / ٢٠٢.

(٤) ابن الأثير: ٤ / ١٢.

فاعترف هاني حينئذ ولكنه رفض تسليمه وأصر على ذلك رغم السجن والتعذيب والله
لو لم

أكن الا واحدا ليس لي ناصر لم أدفعه حتى أموت دونه (١).
وفي تلك الأثناء كان ابن زياد يقوم بحملة إعلامية واسعة لاستعادة زمام الموقف الذي
أفلت، وفق مخطط ذكي وتكتيك بارع. فأوهم رؤساء القبائل بأن جيوشا عظيمة من
الشام

تشق طريقها إلى العراق (٢)، ونثر رجاله في شوارع الكوفة لتخذيل الناس عن مسلم
ومحاولة التأثير عليهم نفسيا بإشاعة جو من الذعر والخوف (٣). وقد أعطت هذه
الحملة

نتائجها الايجابية، ووجد رسول الحسين نفسه أخيرا في قلة قليلة جدا من الأنصار (٤)
وفوجئ بشرطة ابن زياد يقودها محمد بن الأشعث تلقي عليه الحصار، فقاوم ببطولة
ولكن

دول جدوى. وسيق أخيرا إلى قصر الامارة ليواجه مصيره بنفس الشجاعة البطولية (٥).
ثم

جاء برفيقه هاني بن عروة من سجنه وقد أنهكوه تعديبا، وحمل إلى السوق حيث أعدم
أمام

(١) الطبري: ٦ / ٢٠٦.

(٢) الطبري: ٦ / ٢٠٨.

(٣) مقاتل الطالبين: ٦٧.

(٤) الطبري: ٦ / ٢٠٨.

(٥) الطبري: ٦ / ٢١٣، مقاتل الطالبين: ٧١.

جمهور من الناس (١). وقبل أن ينبلج صباح اليوم التالي كان رأسا مسلم وهاني أول شهيدين في ثورة الحسين، مغروسين على أسنة الرماح في طريقهما إلى دمشق.

سارع ابن زياد إلى تطويق ذيول ما يمكن أن يحدثه مصرع الزعيمين الشيعيين من ردة فعل في الكوفة، فأبعد عنها عددا من المتعاونين مع مسلم وقبض على أشدهم خطورة وزج بهم

في السجن من أمثال المختار بن أبي عبيد الثقفي وسليمان بن صرد الخزاعي والمسيب بن

نجه الفزاري وغيرهم (٢). واختفت فئة من هؤلاء، فلم تتمكن منها شرطة ابن زياد وجواسيسه.. وأما الذين استهوتهم اغراءات أمير الكوفة، فقد انضموا إلى جانب السلطة وأصبحوا جزءا من النظام الحاكم وصاروا يشكلون طبقة لها امتيازاتها الخاصة عرفت بطبقة الاشراف.

والواقع ان الانقلاب الذي قاده ابن زياد ضد مسلم في الكوفة لم يكن يخلو من مغامرة. وقد ساعدته عدة عوامل على نجاح انقلابه وافشال حركة مسلم أهمها شخصيته السياسية

الصارمة التي شابتهت إلى حد كبير شخصية أبيه، ثم التركيب القبلي في الكوفة ونجاح

(١) الطبري: ٦ / ٢١٣.
(٢) احمد البراقي: تاريخ الكوفة: ٢٨٩.

أميرها في شق الوحدة السياسية لأكثر من قبيلة واستقطابه عدد غير قليل من رؤساء القبائل. وأخيرا فان التزام مسلم بخط أخلاقي واضح، هو خط الثورة التي كان يبشر بها جاء في مصلحة ابن زياد الذي استغل الظروف بأسلوب مناقض تماما، في وقت كانت فيه

المبادرة في يد مسلم، وكان بإمكانه أن يبطش بعدوه (١) ولكن أخلاقيته واطمئنانه إلى موقف الكوفة دفعاه إلى إضاعة هذه الفرصة المهمة من يده.

وبذلك انطوت الصفحة الأولى من المأساة التي توجهها الحسين بسقوطه في كربلاء دون أن

تم فصولا. وفي تلك الأثناء كان الحسين قد غادر الحجاز (في الثامن من ذي الحجة سنة

٦٠ هجري) متجها إلى الكوفة ومعه نفر قليل من أهله الأقربين، وهو لا يعلم من تفاصيل

ما جرى في المدينة سوى أخبار الثمانية عشر ألفا الذين بايعوا مسلما على الموت (٢). وقد يقول قائل أن خروجه تم قبل جلاء الصورة تماما في الكوفة، ولكن ألم تكن تكفي الاحتياطات التي اتخذها والضمانات التي حصل عليها؟ وهل كان بإمكانه أن يسلك طريقا آخر حينئذ طالما أصر

(١) الطبري: ٦ / ٢٠٤.

(٢) الطبري: ٦ / ٢٠٧.

على عدم الاعتراف بخلافة يزيد؟ ثم هل كان خروجه مجرد حدث طارئ أو انفعال عفوي دون

برنامج سياسي محدد وأهداف اجتماعية واضحة؟. ألم يأتي ذلك كله في وصيته إلى أخيه

محمد بن الحنفية؟ حين قال له: اني لم أخرج أشرا ولا بطرا، ولا مفسدا، ولا ظالما، وانما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي، أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر. فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا أصبر حتى يقضي الله

بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين (١).

وفي الطريق كان أول تقرير عن الكوفة قد وصله من الفرزدق (٢) حيث وضع أمامه الحقائق

بكل مرارتها. ثم انجلت الصورة أكثر بقاء عبد الله بن مطيع وكان قادمًا من العراق حيث تشبث به وناشده العودة (٣). ولكن جواب الحسين لم يتعد الآية الكريمة قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا (٤).

وتابعت قافلة الشهادة الصغيرة طريقها عبر الصحراء دون تردد حتى أصبحت على بعد نحو

عشرين ميلا من

(١) دائرة المعارف الاسلامية الشيعية ٢ / ٤٨ .

(٢) ابن الأثير: ٤ / ١٨ .

(٣) خالد محمد خالد: أبناء الرسول في كربلاء ١٢٧ .

(٤) الطبري: ٦ / ٢٢٤ .

الكوفة، وبلغ ذلك عبيد الله بن زياد فأخذ كافة احتياطاته للحؤول بين الحسين والكوفيين، بفرضه حصاراً محكماً على المدينة لمنع خروج أحد منها وبارسالة حملة استطلاعية من ألف رجل بقيادة الحر بن يزيد لقطع الطريق على الحسين (١) والتضييق عليه

ومنعه من الاقتراب من الكوفة.

وفي نفس الوقت كان يعد للحملة الأساسية التي عهد إليها بتصفية الامر.. وكانت معدة بذكاء ومكر، وفوجئ القائد الذي وقع عليه الاختيار لقيادة الحملة وهو عمر بن سعد القرشي وابن الصحابي الشهير سعد بن أبي وقاص. وحاول أن يتخلص من المهمة الثقيلة

ولكن عبثاً، فقد أصر الأمير على رأيه لأسباب لم تغب عن بال القائد المعين. ولم يكن بإمكان ابن سعد الذي ذاق طعم السلطة وانغمس في بؤرة السياسة أن يصمد في موقفه، وقبل

المهمة خوفاً من ضياع الولاية التي وعد بها (٢).

وفي اليوم الثاني من محرم سنة ٦١ هجري، وصل ابن سعد إلى كربلاء (٣) على رأس أربعة

آلاف فارس (٤).

(١) مقاتل الطالبين: ٧٣.

(٢) مقاتل الطالبين: ٧٤.

(٣) المكان الذي نزل فيه الحسين.

(٤) ابن الأثير: ٤ / ٢٢.

ومعه تعليمات مشددة من سيده بدعوة الحسين إلى الاستسلام والبيعة ليزيد، والا
فالحرب.
وفي خلال أسبوع من الحوار، لم يطرأ على الموقف أي تغيير، فقد أصر الحسين على
رفضه
لشروط القائد الأموي، وان كان قد طلب بأن تتاح له فرصة العودة إلى الحجاز (١)
ولكن
طلبه لم يجاب.
وكان ابن سعد في وضع لا يخلو من الحرج، فإذا ما تودد في حوار مع الحسين
كانت نظرات
خبیثة تحديق فيه من شمر بن ذي الجوشن، الرجل الثاني في الحملة، فيتذكر المهمة
والولاية التي تنتظره (٢).
وفي العاشر من محرم حدث ما كان متوقعا دون اية مفاجآت، سوى انضمام الحر بن
يزيد
إلى جبهة الحسين التي لم تتجاوز السبعين بين فارس وراجل (٣). وكانت تلك النهاية
المأساوية لثورة الحسين التي لم يقدر لها الوصول إلى قاعدتها في الكوفة، فاجهضت
في
كربلاء، وكان ذلك المصرع البطولي الذي سجله الحسين ورفاقه، الذي هز ضمائر
الناس ولا
زال.. وابتدأ تاريخا جديدا في حركة النضال الشيعي سيستمر لآماد طويلة يكتب
بالتضحيات ويسطر بالفداء.

(١) ابن الأثير: ٤ / ٢٤.

(٢) الطبري: ٦ / ٢٣٧.

(٣) الطبري: ٦ / ٢٤٤ - ٢٤٥.

تضعض الأحوال السياسية في نهاية عهد يزيد
كان لسقوط الحسين بهذه الصورة المأساوية نتائج خطيرة في تاريخ العراق والدولة
الأموية عامة. فقد عاش الحزب الشيعي عقدة الذنب مثقلا بمرارة الموقف الانهزامي
الذي وقفه إزاء كربلاء. وتخرج النظام الأموي الذي لم يقدر فظاعة المأساة، وكان
عليه
ان يجابه نتائجها السريعة والمستقبلية التي اخذت تنعكس منذ ذلك الحين على بنية هذا
النظام. وليس ثمة شك ان يزيد كان المسؤول الأول عن مجزرة كربلاء، وكان مسوقا
إلى
ارتكابها بدافع من قصر النظر وعدم صحة الرؤية، فقد أثبت فشله الذريع في تبوء مركز
خطير كالخلافة ذلك المركز الذي بذل في سبيله معاوية كل إمكانياته وصرف كل
جهوده من
أجل الحفاظ عليه. ها هو يزيد يكاد يقضي بتصرف أرعن على كل انجازات أبيه برغم
توصيات
هذا الأخير له بعدم الصدام مع الحسين.

والواقع ان الدولة الأموية، لم تلبث ان اخذت تحتني ثمرة كربلاء بصورة غير متوقعة
وبدت عاجزة عن صد تيار الثورة الذي عم مختلف مناطق الدولة.
ففي الحجاز، كانت المدينة مسرحا لأول انتفاضة ضد السيادة الأموية تحركها عوامل
مختلفة أهمها ما يتعلق بالعزلة السياسية التي فرضها معاوية على الحجاز منذ انتقال
الخلافة إلى البيت الأموي، وبنوعية العمال الذين انتدبتهم الدولة لحكم المدينة لا
سيما عثمان بن محمد بن أبي سفيان وهو من عناصر البيت الأموي كان صغير السن،
قليل

التجربة (١). وهكذا فان عوامل التحلل والنقمة كانت متوافرة في الحجاز، ولكنها
تنتظر

المحرك والوقت الملائم.. فجاءت حادثة كربلاء تفجر المواقف وتطلق النفوس من
عقالها.

وقد حاول يزيد ان يتدارك الامر في المدينة عن طريق التلويح باغداق الأموال عليها
حيناً، وبالتهديد أحياناً أخرى. ولكن موقف المدينة كان حاسماً ووصل قرارها في
الثورة على النظام الأموي نقطة اللا رجوع. ففي المؤتمر الذي عقده زعماءها في
المسجد،

اتخذ قرار بالاجماع، بخلع يزيد ومبايعة عبد الله بن حنظلة الأنصاري الذي أصبح زعيم
الثورة (٢) والمسؤول عن تنفيذ مقررات المؤتمر وكان أولها

(١) ابن الأثير: ٤ / ٤٤ .

(٢) الطبري: ٧ / ٤ .

الهجوم على عناصر البيت الأموي في المدينة، وكانوا مجتمعين بدورهم في منزل كبيرهم مروان بن الحكم، فطردوهم من المدينة كما طردوا عاملها الأموي، وبذلك غدت عاصمة الاسلام الأولى خارج اطار السيادة الأموية. ولم يقف يزيد الذي اصطبغت يداه بدم الحسين، موقف المتفرج على احداث المدينة، وانما كان متصلبا، ومصمما على ضرب الثورة بمنتهى الشدة والقسوة، ويبدو ذلك واضحا من خلال شخصية القائد العسكري الذي أوكل اليه مهمة القضاء على ثورة الحجاز، وهو مسلم بن عقبة الذي يصفه المؤرخون، بأنه أحد جبابرة العرب (١) لصلافته وقسوته. ولم يخيب مسلم أمل الخليفة به، فسرعان ما وصل بجيشه إلى المدينة وضرب حولها الحصار. ولكن أهلها جابهوا الموقف بشجاعة وحفروا خندقا (٢) حول مدينتهم استعدادا لحرب طويلة وقاسية. غير أن استعدادات المدينة لم تكن كافية للوقوف أمام جيش متفوق في العدد والتنظيم والقيادة، فانتهدت أحلامها الاستقلالية بالسقوط في موقعة الحرة (٦٣ هجري / ٦٨٣ م) وبانتهاك مسلم حرمتها بإباحتها لجنوده أياما ثلاثة: يقتلون الناس ويأخذون الأموال (٣).

(١) البلاذري: انساب الاشراف ٤ / ٤٣.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢ / ٢٥٠.

(٣) الطبري: ٧ / ٢٥٨.

وهكذا كان تحرك المدينة، استنكارا مباشرا لمقتل الحسين ورفضاً للسيادة الأموية التي حادت برأيهم عن الشرعية وانحرفت عن روح الاسلام. ولم يكن اخضاع المدينة معناه

القضاء على الثورة في الحجاز، لان رايتها انتقلت إلى مكة التي شهدت تحركا أكثر عنفا وضراوة.

وفي مكة بلغ التحرك بعدا أشد خطورة، باعلان عبد الله بن الزبير ثورته ورفضه الاعتراف بخلافة يزيد. وقد جاء توقيت هذه الثورة بعد سقوط الحسين في كربلاء، ليضعها

في اطار التحرك العام الذي شمل المنطقة بكاملها استنكارا للمأساة ورد فعل مباشر لها. والحق انه برغم ما كان لمقتل الحسين من تأثيرات على هذه الثورة، الا اننا لا نستطيع أن نربطها بثورة الحسين والثورات الأخرى التي كانت امتدادا لها. ذلك أن ابن الزبير كان يعد نفسه للثورة بمعزل عن الحسين وقبل أن يتحرك هذا الأخير الذي وقف عائقا أمام طموحه إلى السلطة، لان المكانة العظيمة التي احتلها الحسين في نفوس الجماهير، لم تدع أي مجال للمنافسة. ونتيجة لذلك كان على ابن الزبير أن يتسلح بالصبر وأن يتصرف بذكاء إلى أن يتبلور الموقف وتتوضح الأمور وهو في نفس الوقت لا

يألو جهدا في دفع الحسين للاستجابة إلى نداء الكوفيين في الذهاب إلى العراق واعلان الثورة من هناك على خلافة يزيد.

على اننا نخطئ إذا انزلقنا في تصورنا لمدى تأثير

الحملة النفسية التي قام بها ابن الزبير إزاء منافسه الرئيسي الحسين لدفعه على الخروج، لان هذا الأخير كان يعمل وفق خطة مرسومة وفي اطار من الحذر (١) وسلامة

الرؤية. وكان يدرك جيدا ما وراء هذا التشجيع (٢) لتحديد موقفه والاسراع في مغادرة الحجاز لو كان لي في الكوفة مثل شيعتك ما عدلت عنها (٣). فوجوده في هذا الاقليم كان ثقيلًا على ابن الزبير الذي عرف أن أهل الحجاز لا يبايعونه ولا يتابعونه أبدا ما دام الحسين بالبلد وأن حسينًا أعظم في أعينهم وأنفسهم منه وأطوع في الناس منه (٤). انها حقيقة أدركها الحسين بكل أبعادها، ومع ذلك اتخذ الطريق إلى العراق للقيام بمسيرته التاريخية، وهي الثورة على الظلم ودك صروح الطغيان، وإقامة مجتمع عادل متحرر من الطبقية والقهر والاستغلال (٥).

(١) الطبري ٦ / ١٨٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ١٦٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ١٦٠.

(٤) الطبري: ٦ / ١٦٩ - ١٩٧.

(٥) جاء في وصية الحسين لأخيه محمد بن الحنفية: اني لم اخرج أشرا، ولا بطرا، ولا مفسدا، ولا ظالما، وانما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي، أريد ان أمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق، ومن رد علي هذا اصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين.

وفي نفس الوقت لم تكن الحجاز بنظر الحسين الأرض الصالحة لحركة سياسية ناجحة، فقد أفسدها تطاحن الأحزاب وشراء الضمائر، واصرار معاوية على ابقائها معزولة عن الاحداث، فعاشت في الظل نحو ربع قرن من الزمن، فضلا عن قلة مواردها الاقتصادية (١) وعدم اكتفائها الذاتي الامر الذي كان يجعل من استمراريتها وحيدة في التصدي للنظام الأموي أمرا في غاية الصعوبة. لذلك كان العراق بضخامة موارده البشرية والاقتصادية، الأرض الصلبة التي توفر الطمأنينة، وتجعل فرص النجاح أقرب إلى التحقيق. لبث ابن الزبير معتصما في المدينة المقدسة، يرقب من بعيد سير الاحداث، حتى جاءته الاخبار تنقل اليه مصرع الحسين في كربلاء، فلم يتردد في اتخاذ الموقف الذي كان يتوق إلى اتخاذه وهو اعلان الثورة على النظام الأموي والاستقلال بالحجاز، مستغلا كما حدث في المدينة بشاعة المجزرة في تكتيل الجماهير الغاضبة حوله وتحريكها بشكل عاصف ضد الأمويين قتلة الحسين، ولكن ثورته اختلفت عن ثورة المدينة بأن هذه الأخيرة انعكست عليها كربلاء بكل ما فجرته من غضب وحق، بينما كان الطموح الشخصي

(١) الخربوطلي: عبد الله بن الزبير ٩٢.

فقط هو جوهر الثورة التي قام بها ابن الزبير وأكثر سماتها بروزا. وإذا كانت قوات الخلافة الأموية قد تمكنت من حسم الموقف سريعا في موقعة الحرة التي انتهت بفشل ثورة المدينة، فإن الموقف كان أشد حرجا في مكة قاعدة ابن الزبير التي أخذت تتوسع بعدئذ لتشمل الحجاز كله، ثم العراق ومصر. ذلك أن هذه القوات فقدت

في الطريق قائدها الصلف متأثرا بشدة المرض وتقدم السن. فخلفه في القيادة بناء على وصية من يزيد أحد معاونيه والمتفانين في خدمة النظام الأموي هو الحصين بن نمير السكوني (١).

وصل الحصين بن نمير بقواته إلى مكة وضرب حولها الحصار، وأثبت في صلافته انه تلميذ

متفوق لمسلم بن عقبة. أما ابن الزبير فقد تحصن في الكعبة وسد منافذ المدينة، وكان قد قوي مركزه حينئذ بما انضم اليه من الحلفاء كبعض الهاربين من موقعة الحرة، وجماعة الخوارج النجدية (٢) والأزارقة (٣) فضلا عن المختار الثقفي الذي بدأ يبرز كشخصية قوية أثر التطورات السياسية التي رافقت كربلاء وتمخضت عنها. وازداد مركز ابن الزبير

(١) ابن قتيبة: الإمامة السياسية: ٢ / ١٠.

(٢) الشهرستاني: الملك والنحل ١ / ١٦٥.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ٢٣٩.

قوة، حين أصبح المعارض الأول للنظام الأموي والرجل الذي يحظى بتأييد غالبية المسلمين، التي استنكرت اقدام جيش يزيد على غزو مكة، واشتد سخطها حين أخذت مجانيق

هذا الجيش ترمي بقذائفها الكعبة (١) مرتكبة أول عمل جريء من هذا النوع، سيظل يستشير

حفيظة المسلمين على مر الأيام (٢).

وفي غمرة هذه الاحداث، تأتي الانباء ناعية يزيد، الذي ترك الخلافة الأموية لمصيرها الغامض. وإذ ذاك توقفت العمليات الحربية في المدينة المقدسة (٦٤ هجري)، ودخل القائد

الأموي في مفاوضات مع ابن الزبير انتهت باجتماع الرجلين في (الأبطح) (٣) لمناقشة الوضع السياسي العام. وقد حاول الحصين اقناع ابن الزبير بالذهاب إلى الشام ومبايعته بالخلافة. ويبدو ان القائد الأموي أدرك ان الأمور تتجه لمصلحة ابن الزبير، فأراد أن يخوض به معركة الخلافة في دمشق. ولكن هذا الأخير رفض عروض الحصين الذي سارع بالعودة

إلى عاصمة الخلافة ليكون على مقربة من تطورات الاحداث فيها. والواقع ان استنكاف ابن الزبير عن الاستماع لنصيحة

(١) ابن الأثير: ٤ / ٥٢.

(٢) GABRIELI Les ARABES ٩١

(٣) الطبري: ٧ / ١٦ - ١٧.

الحصين في الذهاب إلى دمشق، قد فوت عليه فرصة عظيمة من فرص الوصول إلى الخلافة.

فقد شغل هذا المنصب بوفاة يزيد، واحتدم الصراع عليه بين أفراد الأسرة الحاكمة، والعاصمة الأموية في غمرة ذلك تبحت عن رجلها القوي دون جدوى لفترة غير قصيرة.

ولا ريب ان غياب يزيد المفاجئ، قد أحدث بلبلة في مختلف أقاليم الدولة الأموية، وأخذ

التحرك فيها يتصاعد ويحمل بعدا جديدا، ستحدد على ضوءه موقفها من مسألة الخلافة بصورة عامة. وكان من الطبيعي في غمرة هذا الفراغ السياسي وهذا الجو المشحون بالتناقضات، أن يتبارى الطامحون إلى السلطة في استغلال المواقف وانتهاز الفرض لاستقطاب أكبر عدد من الناس حول قضيتهم. وكان العراق، الذي ما قبل يوما السيادة الأموية الا مرغما، المسرح الذي تمثلت فيه صورة الرفض لهذه السيادة وما تمخضت عنه

من أحداث عنف واضطرابات متواصلة. فالبصرة التي عرف عنها بعض التحفظ في مواقفها

العدائية من الحكم الأموي كان عليها هذه المرة أن تأخذ قرارها بسرعة، أما الاعتراف بخلافة ابن الزبير، الرجل الذي اتجهت إليه الانظار حينئذ كأقوى شخصية في العالم الاسلامي، واما المضي في خضوعها للسيادة الأموية التي يمثلها عبيد الله بن زياد. وقد اغتنم هذا الأخير

الفرصة فحاول أخذ البيعة لنفسه باسم الأمويين، بانتظار ما يسفر عنه الموقف في دمشق،

ولكن محاولاته فشلت وأرغم على الخروج مطرودا من المدينة (١). بايعت البصرة بعد ذلك، أحد رجالها، وهو عبد الله بن الحارث بن نوفل (٢) ولكنه فشل في

مهمته، لان المدينة تحولت إلى مسرح للفوضى، تعاني من التطاحن القبلي واشتداد ضغط

الخوارج، وفشل أيضا الذين جاءوا بعده (٣)، فكتب أهلها إلى ابن الزبير يبايعونه ويطلبون إليه انتداب رجل يتولى الامر فيهم ويدفع عنهم خطر الخوارج (٤). والواقع ان تدهور الموقف في البصرة وصل إلى مرحلة بالغة الخطورة، الامر الذي دفع سكانها إلى توحيد كلمتهم والاحتكام إلى خليفة الحجاز، فلبى هذا الأخير طلبهم وبعث إليهم الحارث

بن عبد الله بن ربيعة (٥) فساعد كثيرا في اقرار السلام في تلك المنطقة، حتى إذا جاء مصعب بن الزبير بعد ذلك بقليل عاد الهدوء تماما إلى البصرة وتحدد موقفها بصورة واضحة.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ٢٣٨.

(٢) الطبري: ٧ / ٢٤، ابن كثير: ٨ / ٢٣٨.

(٣) الطبري: ٧ / ٣٢ وما بعدها. ابن كثير: ٨ / ٢٣٨.

(٤) الدينوري: الاخبار الطوال ٢٨٠.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ٨ / ٢٣٩.

وفي الكوفة، التي عاشت تحت وطأة التقصير والخذلان في أعقاب مصر الحسين، كان الموقف

يزداد غليانا، خاصة وأن الأسلوب الأموي التقليدي القائم على الضغط والارهاب، نحو هذه المدينة المعروفة بميولها العلوية المتطرفة، لم يتغير ولم يطرأ عليه تعديل. فقد استمر التنكيل الأموي يتصاعد بعد كربلاء، وكان الأداة التنفيذية له، نائب عبيد الله بن زياد في الكوفة، عمرو بن حريث. ومن البديهي القول ان هذه المدينة، كقاعدة أساسية

للحركة الشيعية، اختلفت في موقفها من النظام الأموي عن البصرة، فإذا كان موقف هذه

الأخيرة قد امتزج ببعض التحفظ قبل أن تعلن قرارها الحاسم، فان الكوفة لم تكن بحاجة

إلى التردد، فقد اتخذت قرارها سريعا وهو طرد عاملها عمرو بن حريث ممثل النظام الأموي فيها، وتولية عامر بن مسعود مكانه، ثم كتب أهلها إلى ابن الزبير بشأن ذلك فأقر ابن مسعود في منصبه (١)، وبذلك خرج العراق بكامله من السيادة الأموية وانضم إلى ابن الزبير.

اما في دمشق فان وضع الخلافة الأموية ازداد تخرجا بتنازل خليفة يزيد، معاوية الثاني، عقب ظروف غامضة، مسديا - دونما قصد - خدمة كبيرة لخلافة ابن الزبير.

(١) الطبري: ٧ / ٣٠.

فأدى ذلك إلى نشوب أزمة سياسية عنيفة في دمشق واجهت النظام الأموي وكادت ان تقضي عليه (١). وتفاقم التطاحن بين القبائل حتى بلغ مرحلة من الخطورة بعيدة (٢) فقد أيدت القبائل القيسية بزعامة الضحاك بن قيس الفهري وزفر بن الحارث الكلابي ابن الزبير، بينما أيدت القبائل اليمانية بزعامة حسان بن بحدل الكلبي (٣)، مروان بن الحكم الذي طرح نفسه كمرشح للخلافة والتف حوله المؤيدون لبني أمية وبايعوه (٤) في مؤتمر الجابية سنة ٦٤ هجري / ٦٨٤ م الذي عالج مسألة الخلافة والانقسامات في البيت الأموي. وكان هذا المؤتمر خطوة أولى ومهمة لاجتياز المحنة وخروج الخلافة من مأزقها. ثم كانت الخطوة الثانية والحاسمة عندما التقت جيوش المتنافسين في مرج راهط في معركة طاحنة انتهت بانتصار مروان وحلفائه من القبائل اليمانية، وهزيمة قاسية للقبائل القيسية، حلفاء ابن الزبير، ومقتل زعيمها الضحاك وثلاثة من أبناء زفر بن الحارث (٥).

-
- (١) فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ١٦٦
(٢) بيبزون - زكار: تاريخ العرب السياسي ١٣٩.
(٣) فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ١٧٥.
(٤) تاريخ خليفة: ١ / ٣٢٦.
(٥) تاريخ خليفة: ١ / ٣٢٦.

وهكذا قدر للأمويين الاحتفاظ بالخلافة وانتزاعها مرة ثانية بالقوة، بعد أن أوشكت على الضياع والانتقال إلى الحجاز. غير أن فرعا آخرأ أمسك بزمامها، هو الفرع المرواني الذي تقلدها حتى سقوط الخلافة الأموية (١).

(١) F. GABRIELI LES Arabes ٩١

الباب الثالث.. التوابون (الشعور بالذنب والتقصير)

(٩٤)

عاد ابن زياد، المنفذ الرئيسي لمجزرة كربلاء، إلى الكوفة يحمل في كفيه وزر الجريمة النكراء دون أن يرتعش لهولها أو يدخل في روعه الندم. فقد كان مستعدا للسير في خدمة

النظام الأموي، وهو أحد أركانها، بلا حدود، بعيدا عن أي التزام يتعدى المصلحة الخاصة أو المكاسب الشخصية. لذلك نجده يدخل إلى المدينة التي كانت تمثل القاعدة

الجماهيرية الأولى للحسين، والأرض التي كان ينبغي أن تشتعل فوقها الثورة، متحديا شامخا، وكأنه ينتظر وسام البطولة. ألم يصل به الامر ذروة التحدي حين وقف على منبر

الكوفة في محاولة منه لتسويغ ما جرى في كربلاء متهجما على الحسين وواصفا إياه بالكذاب ابن الكذاب، وحين أمر بقتل أحد الكوفيين الذي انتقض عليه ورد على التحدي

بمثله (١).

وكانت الكوفة حينئذ أشبه ببركان عشية الانفجار، فهي أكثر من غيرها تتحسس ثقل الذنب

ومرارة الندم، باعتبارها طرفا مباشرا ومسؤولا في قضية الحسين. فهي

(١) البلاذري: انساب الاشراف ٤ / ٦٤.

التي ألحت عليه بالخروج إلى ارض الثورة التي تتعطش إلى قائدها المنتظر، ثم تقاعست في أخرج الظروف عن الالتزام بما وعدت به والوفاء بالعهد الذي قطعته على نفسها. وإذا

كانت الاحداث التي تلاحقت بصورة مفاجئة بعيد تحرك الحسين من الحجاز، قد حالت دون

القيام بواجبها وتنفيذ مخططها المرسوم، فان ذلك لم يكن ليخفف عنها عمق المأساة لأنها افتقدت بمصرع الحسين الشخصية الأكثر جدارة التي وضعت فيها الشيعة كل آمالها

وطموحها للوصول إلى الحكم.

والواقع انه ليس من الصعوبة أن يتصور المرء وضع الكوفة في تلك الفترة القلقة من تاريخها، فقد كانت تتفاعل بالغضب ويحرق بها شعور بضخامة الاثم الذي غرقت فيه. وكان

لا بد من مخرج لهذه المحنة وتصحيح للموقف المتخاذل بآخر يجلو عنها بعض العار، ويخفف

عن كاهلها شيئاً من فداحة الذنب. فالمدينة كانت معبأة بالحقد وتتفجر بالثورة ضد النظام الأموي، المسؤول عن مقتل الحسين. وعلى ذلك لم يكن صعباً على أي زعيم أو مغامر ان يكتل المدينة بمعظمها ويقودها إلى الثورة ورفع راية العصيان على الأمويين. ولكن الكوفة حينئذ برغم موجة السخط والتذمر التي شملت مختلف فئاتها، كانت

تفتقر إلى الموقف

المتجانس والرأي الموحد. فالتركيب البشري والسياسي للمدينة كانت تتوزعه ثلاث قوى

رئيسية:

- ١ - أنصار الثورة الذين يشددون على اتخاذ موقف سريع وحاسم.
- ٢ - أنصار الثورة غير الايجابيين، وهؤلاء برغم حقدهم على النظام الأموي، فان موقفهم

كان مترددا وتعوزه الجدية.

- ٣ - أنصار السلطة القائمة، الذين كانوا على استعداد للتعاون مع أي شكل من أشكال النظام السياسي في حدود حرصه على مصالحهم وحمايته لها، وكان هؤلاء يمثلون طبقة

أرستقراطية لها نفوذها التقليدي ومصالحها الخاصة وهم أساسا من كبار رؤساء القبائل أو الاشراف كما كانوا يعرفون. تلك هي التركيبة البشرية والسياسية للمجتمع الكوفي كما كانت تبدو في أعقاب عودة ابن

زياد وجنده من معسكره في النخيلة (١) بعد ارتكابه المجزرة، وكان ذلك مأساويا بكل ما

تعنيه هذه الكلمة، ومشهدا مؤثرا لم تستطع جماعة الحسين التي كان مقدرها لها أن تشارك في ثورته، تحمله أو السكوت عنه، ولذلك كان لا بد من التحرك والانتقام.

(١) الطبري: ٧ / ٤٧.

أخذ زعماء تلك الفئة المخلصة التي أطلقنا عليها أنصار الثورة وكان معظمهم من أصل يمني يجتمعون بعد مقتل الحسين مباشرة في اطار من السرية التامة ويعقدون مناقشات أشبه ما تكون بالنقد الذاتي لمحاسبة أنفسهم على التقصير الذي أظهره إزاء الحسين والتشاور على كيفية التكفير عن الذنب وغسل العار الذي لحق بهم نتيجة هذا التخاذل. فقد جاء في الطبري: لما قتل الحسين بن علي تلاقى الشيعة بالتلاوم والتندم، ورأت انها قد أخطأت خطأ كبيرا بدعائهم الحسين إلى النصره وتركهم اجابته، ومقتله إلى جانبهم ولم ينصروه. ورأوا انه لا يغسل عارهم والاثم عنهم في مقتله الا بقتل من قتله أو القتل فيه (١).

(١) الطبري: ٧ / ٤٧.

مؤتمر الزعماء الخمسة

تزعّم التحرك الشيعي حينئذ خمسة من كبار الزعماء الكوفيين، المتقدمين في السن (١) الذين ارتبطوا تاريخيا بالحركة الشيعية وهم: سليمان بن صرد الخزاعي، والمسيب بن نجبه (٢) الفزاري، وعبد الله بن سعد بن نفيّل الأزدي، وعبد الله بن وال التميمي، ورفاعة بن شداد البجلي (٣). وكانوا جميعا رفاق علي ومن أشد المؤيدين له (٤).

ومن

خلال انتماءات هؤلاء الزعماء القبليّة نلاحظ أنهم يتحدرون جميعا من أصل يمني، علما بأن القبائل اليمنية لم تنتظم بكاملها في هذه الحركة إذ غاب عنها عدد من أقطاب اليمنية مثل كندة ومدحج وهمدان، وقد عرف عن هذه الأخيرة بصورة خاصة تعصبها الشديد للقضية العلوية.

(١) فلهوزن: الخوارج الشيعة ١٨٩، الطبري ٧ / ٤٨.

(٢) ورد في البداية والنهاية: ابن نجبه ٨ / ٢٤٧.

(٣) الطبري ٧ / ٤٧، ابن كثير ٨ / ٢٤٧

(٤) ابن كثير: ٨ / ٢٤٧

بدأ الزعماء الخمسة يمارسون نشاطهم في الخفاء ويثرون بدعوتهم الانتقامية في
أوساط
الحزب الشيعي، بعيدا عن مراقبة السلطة وجواسيسها المنتشرين في كل مكان، فكان
ان
أثمرت جهودهم وشكلوا منظمة سرية نواتها نحو مائة (١) من العناصر المتطرفة، لم
تلبث
أن تحولت إلى منظمة كبرى تحمل اسم التوابين، وقد صارت هذه التسمية هي الغالبة
على
حركة سليمان ورفاقه، وهي أصلا منبثقة عن الآية الكريمة التي أصبحت الشعار الرئيسي
لهم وهي: (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم
انه هو التواب الرحيم) (٢).
وكان الاجتماع الأول الذي ضم هؤلاء قد عقد في منزل سليمان بن صرد الذي وصف
بأنه
صحابي جليل (٣) وهذا يعطينا فكرة بأنه كان متقدما في السن رفيع المكانة في
مجتمعه،
وربما كان لذلك اثر في تصدره هذه الحركة واحتلاله مركز الزعامة فيها. لان
المناقشات
التي جرت في هذا الاجتماع أظهرت أن المسيب كان من أبرز الخمسة وألمعهم
تفكيراً
وأكثرهم عمقا. وكان سليمان يعرف في

(١) الطبري: ٧ / ٤٨.

(٢) القرآن الكريم: ٥٤ البقرة ٢، يعقوبي ٢ / ٢٥٧.

(٣) ابن كثير: ٨ / ٢٤٧

الأصل باسم يسار، ويقال ان النبي هو الذي أطلق عليه اسم سليمان بعد اعتناقه الاسلام (١) وقد هاجر في وقت مبكرا إلى الكوفة وشارك في القتال إلى جانب علي لا سيما في حروب صفين، وان كان قد تخلف عنه في يوم الجمل لأسباب غير واضحة تماما،

الامر الذي جعل عليا يلومه بشدة ثم يقبل عذره فيما بعد. ومما يثير الاهتمام ان علاقة سليمان بعلي وايمانه بقضيته كانت أكثر من مجرد تحالف عادي أو مرحلي. فقد كان

من أقرب أعوانه وأشدهم اخلاصا. ويستخلص هذا من المحاورة التي جرت بينهما اثر انتهاء معركة الجمل حين بادره علي بقوله: تربصت وتأنأت فكيف ترى صنع الله؟ فأجابه سليمان: الشوط بطين وقد بقي من الأمور ما تعرف به صديقك من عدوك (٢). وبعد

وفاة علي ظل على ولائه له حيث أظهر حماسة شديدة للحسين وكان من أوائل الذين كتبوا

اليه من أجل التوجه إلى الكوفة وتزعم ثورتها ضد النظام الأموي (٣). كان الاتجاه العام للمناقشات يدور حول التكفير عن الذنب والمخطط الانتقامي الذي يمكن أن يزيل عنهم الشعور بالاثم، وذلك في جو من الانفعال الشديد. والواقع انه لم يكن هناك شئ من برنامج الحركة الشيعية

(١) دائرة المعارف الاسلامية ١٢ / ١٧١.

(٢) البلاذري: انساب الاشراف، ٢ / ٢٧٢.

(٣) الطبري: ٦ / ١٩٧.

السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي على غرار ما ظهر قبل ذلك في ثورة الحسين أو ما

ظهر فيما بعد من ملامح في حركة المختار الثقفي. وكان أول المتكلمين في الاجتماع المسيب بن نجبه الذي قال: (اما بعد، فانا قد ابتلينا بطول العمر والتعرض لأنواع الفتن فرغب إلى ربنا الا يجعلنا ممن يقول له غدا أو لم نعمركم يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فان أمير المؤمنين قال العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة. وليس فينا رجل الا وقد بلغه. وقد كنا مغرمين بتزكية أنفسنا وتقريظ شيعتنا حتى بلا الله أختيارنا فوجدنا كاذبين في مواطنين من مواطن ابن بنت نبينا. وقد بلغتنا كتبه، وقدمت علينا رسله، واعذر الينا يسألنا نصره عودا وبدءا، وعلانية وسرا. فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قتل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا، ولا جادلنا عنه بالسنتنا، ولا قويناه بأموالنا، ولا طلبنا له النصره إلى عشائرننا فيما عذرنا إلى ربنا وعند لقاء نبينا صلى الله عليه وسلم وقد قتل فينا ولده وحببيه وذريته ونسله؟ لا والله لا عذر دون ان تقتلوا قاتله والموالين عليه، أو تقتلوا في طلب ذلك فعسى ربنا أن يرضى عنا عند ذلك وما أنا بعد لقائه لعقوبته بآمن) (١). ثم أنهى كلامه بتشديده على توحيد الصفوف ودعوة رفاقه إلى انتخاب رئيس يفزعون اليه ويأخذون برأيه (٢).

(١) الطبري: ٧ / ٤٨.

(٢) الطبري: ٧ / ٤٨.

وتكلم بعد ذلك زعيم آخر هو رفاعه بن شداد، فأثنى على ما جاء في خطبة المسيب وأوصى باتخاذ سليمان بن صرد زعيما للحركة، مؤكدا في الوقت نفسه على الموضوع الرئيسي للاجتماع وهو التكفير عن الذنب إذ قال:
(أما بعد فان الله قد هداك لأصوب القول ودعوت إلى أرشد الأمور والى جهاد الفاسقين والى التوبة من الذنب العظيم، فمسموع منك، مستجاب لك، مقبول قولك. قلت ولوا رجلا منكم تفرعون اليه وتحفون برايته وذلك رأيي قد رأينا مثل الذي رأيت، فان تكن أنت الرجل عندنا مرضيا وفينا منتصحا وفي جماعتنا محبا وان رأيت ورأى أصحابنا ذلك ولينا هذا الامر شيخ الشيعة صاحب رسول الله وذا السابقة والقدم سليمان بن صرد المحمود في بأسه ودينه والموثوق بحزمه أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم) (١).
وتعاقب على الكلام عبد الله بن وال وعبد الله بن سعد فأيدا اقتراح رفاعه بتأشير سليمان الذي فاز بزعامه الحركة من منافسة المسيب الذي بدا كأبرز المجتمعين في المؤتمر وظهر ميله إلى تزعم الحركة حين كان الوحيد بين الخطباء الذي أغفل اسم سليمان بشأن الزعامه.
وتكلم سليمان بن صرد وكان قد أصبح زعيما

(١) الطبري: ٧ / ٤٨.

للحركة مشيراً إلى عظم الرزء وضخامة المأساة، ومشدداً على النهوض لغسل الاثم والتكفير عن فداحة الذنب والسعي في طلب الشهادة انا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا، ونمنيهم بالنصر، ونحثهم على القدوم. فلما قدموا ونبينا، وعجزنا، وأدهنا، وتربصنا، وانتظرنا ما يكون، حتى قتل فينا ولد نبينا وسلالته وبضعة من لحمه ودمه... الا انهضوا، فقد سخط ربكم، ولا ترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله وما أظنه

راضياً حتى تناجزوا من قتله أو تبيروا. الا لا تهابوا الموت فوالله ما هابه امرؤ قط الا ذل. كونوا كالأول من بني إسرائيل، إذ قال لهم نبيهم: انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم (١). والواقع ان هذه الخطبة الخطيرة وضعت الحركة موضع التنفيذ وجاءت بمثابة برنامج عام

لها حيث تناولت النقاط التالية:

- ١ - الشعور بهول المأساة وفداحة الاثم.
- ٢ - الاسراع باتخاذ موقف انتقامي من المسؤولين عن مقتل الحسين سواء الأمويين أم المتواطئين معهم.
- ٣ - تجسيد فكرة الاستشهاد بالتنازل عن الاملاك واعتزال النساء.

(١) الطبري: ٧ / ٤٩.

٤ - الالحاح في طلب التوبة عن طريق التضحية بالنفس.
ومن خلال هذه المناقشات التي شهدها مؤتمر الزعماء الخمسة، تلاحظ انها دارت
حول فكرة

رئيسية هي التكفير عن الذنب، وهذه الفكرة لها جذورها البعيدة في المجتمعات
العراقية

الغابرة، وأصولها القديمة في ديانات ما بين النهرين، فضلا عن الديانة المسيحية
التي تسربت إلى هذه المنطقة قبل مجيء العرب إليها. ولا ندري إذا كان التوابون قد
تأثروا في هذا المجال بهذه الجذور التاريخية، أم ان ذلك شئ أصيل وذاتي فيهم، زاده
بلورة تلك التجربة المريرة التي عاشوها في أعقاب مصرع الحسين.

انتهى المؤتمر ملتزما بهذه المقررات الحاسمة، وملتزما بزعامة سليمان بن صرد أكبر
الزعماء الخمسة سنا وأسبقهم في الاسلام وأوثقهم علاقة بعلي وأسرته، وكذلك أرفعهم
شأنا في مكانته القبلية. وليس ثمة شك ان هذا الاختيار كان موفقا وفي صالح الحركة،
لان سليمان كان طرازا فريدا بين رجالات الكوفة، شديد الايمان بالقضية التي رفع
شعارها، مقتنعا بضرورة الاخذ بمبدأ العنف لتصعيد حركة النضال الشيعي ضد أعدائها
الأمويين. اتخذوا السيوف وركبوا الأسنة واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط
الخيال حين تدعوا وتستنفروا (١).

(١) من خطاب سليمان في المؤتمر، الطبري ٧ / ٤٩.

فلم يكن هو، أو أحد من رفاقه ساعيا وراء مطلب خاص أو مكسب شخصي، وإنما كانوا طلاب قضية عامة هدفها أولا الانتقام للحسين رأس الحركة الشيعية ورائدها في تحقيق أمانها السياسة، وثانيا إزاحة الأمويين من السلطة في الكوفة وتحويلها إلى قاعدة للحكم الشيعي الذي ينبغي أن يسود مختلف أقاليم الدولة. وهذا يظهر بكل وضوح أن جماعة التوابين لم يطلبوا السلطة للتحكم، بل لتنفيذ مبدأ عام هو الاسلام. وكان بنظرهم السكوت عن ذلك وتخليهم عنه، يعتبر خيانة لقضيتهم، وتخليا عن حق شرعي، وخرقا لعهد إلهي. ومن المهم هنا أن نشير إلى أن هذه المبالغة في نكران الذات، وطرح هذه الأفكار المثالية، كانا بدون شك سبب ذلك الاخفاق المتواصل للحركات الشيعية والعامل الذي ساعد النظام الأموي على تصفيتها بكل سهولة.

وليس من باب الصدفة فقط ان يتولى قيادة هذه الحركة خمسة من الشيوخ أصغرهم قد نيف على الستين (١). ولعل الباحث هنا يجد مدخلا للتعرف إلى جمهور الحركة ولتحديد الجيل الذي استمدت منه عناصرها بشكل عام. والأرجح ان التوايين - لا سيما الذين تابعوا الشوط حتى آخره - قطعوا خريف العمر أو كادوا. وهؤلاء تتجسد لديهم فكرة التوبة عادة أكثر من العناصر الشابة. ثم إن حركة من هذا النوع، اقتصر مضمونها على التضحية والغفران الا تحتذب جمهور الشبان الملتزمين بخط سياسي واضح والمؤمنين بالتغيير. وهذا ما يفسر انصراف عدد من الزعماء الشبان في الكوفة عن هذه الحركة، كإبراهيم الأشتر مثلا الذي وجد فيها مضمونا ساذجا وتحركا في غير أوانه. ولا شك ان هذا التجانس النوعي في صفوف التوايين كان له بعدا خاصا كرس أكثر فأكثر مفهوم التضحية والفداء. فهؤلاء لم يجزعوا كثيرا على ما تبقى من العمر بعد أن بلغوا الأردل منه وقطعوا حبل سنواته العجاف.

(١) الطبري ٧ / ٤٨ .

الاتصالات

سارت الحركة في اتجاه عملي، محافظة على سريتها التامة التي استمرت طيلة خلافة يزيد

الأول (١)، وهي فترة حاسمة دأب فيها التوابون بكل إمكاناتهم على تعبئة المقاتلين وجمع الأسلحة واستمالة الناس (٢)، واتفقوا على أن يعقدوا لقاءات دورية لتقويم النشاطات التي قاموا بها والانجازات التي حققوها، ومن ثم لتحديد موعد للخروج واعلان

الثورة. واستقر الرأي أخيرا على أن يكون التجمع في النخيلة (٣) في نهاية ربيع الآخر من سنة ٦٥ للهجرة (٤).

كانت أولى الخطوات التنفيذية التي قام بها سليمان، هي محاولة استقطاب زعماء الكوفة

واستمالة أكبر عدد من جماهيرها، والكتابة إلى رجالات الحزب الشيعي في البصرة والمدائن وسواهما من المدن العراقية. وكانت هذه

(١) الطبري: ٧ / ٥١.

(٢) الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ١٣٣

(٣) النخيلة: مكان بالقرب من الكوفة.

(٤) ابن كثير: ٨ / ٢٤٧، الطبري: ٧ / .

الاتصالات تتضمن المفاهيم العامة للحركة ومنطلقاتها، ثم الدعوة إلى المشاركة في مؤتمر النخيلة المذكور (١). فقد كتب أمير التوابين إلى عامل المدائن، سعد بن حذيفة بن اليمان:

اما بعد، فان الدنيا دار قد أدبر منها ما كان معروفا، وأقبل منها ما كان منكرا وأصبحت قد تشنأت إلى ذوي الأبواب وأزمع بالترحال منها عباد الله الأخيار وباعوا قليلا من الدنيا لا يبقى بجزيل مثوبة عند الله لا يفنى. ان أولياء الله من إخوانكم وشيعة آل نبيكم نظروا لأنفسهم فيما ابتلوا به من أمر ابن بنت نبيهم الذي دعي فأجاب ودعا فلم يجب، وأراد الرجعة فحبس وسأل الأمان فمنع وترك الناس فم يتركوه وعدوا عليه فقتلوه ثم سلبوه وجردهه ظلما وعدوانا وغرة بالله وجهلا... فلما نظروا إخوانكم وتدبروا عواقب ما استقبلوا رأوا أن قد خطئوا بخذلان الزكي واسلامه وترك مواساته والنصر له خطأ كبيرا ليس منه مخرج ولا توبة دون قتل قاتليه أو قتلهم حتى تفنى على ذلك أرواحهم (٣).

كان وقع هذا الكتاب مؤثرا جدا على شيعة المدائن، خاصة وأن عددا من الكوفيين قد نزحوا إليها (٣)، وهؤلاء

(١) ابن كثير: ٨ / ٢٤٧.

(٢) الطبري: ٧ / ٥٠.

(٣) الطبري: ٧ / ٥٠.

ظهروا شديدي الحماس للاستجابة الفورية إلى دعوة التوابين. وما لبث ان جاء الرد ايجابيا من عامل المدائن وشيعتها والاستعداد الكامل للتحرك في اليوم الموعود إلى النخيلة اما بعد، فقد قرأنا كتابك وفهمنا الذي دعوتنا اليه من الامر الذي عليه رأى الملاً من إخوانك، فقد هديت لحظك ويسرت لرشدك، ونحن جادون، مجدون، معدون، مسرجون،

ملجمون ننظر الامر ونستمع الداعي فإذا جاء الصريخ أقبلنا ولم نعرج ان شاء الله (١). وكان سليمان قد أرسل نسخة ثانية من كتابه إلى المثنى بن محربة العبدي في البصرة لكسب تأييده مع الشيعة هناك (٢) فأجابوا جميعا إلى دعوته. وقد جاء في رد المثنى قرأت كتابك وأقرأته على إخوانك فحمدوا رأيك واستجابوا لك، فنحن موافوك ان شاء الله

للأجل الذي ضربت وفي الموطن الذي ذكرت (٣). وبذلك أخذت دعوة التوابين تتسع في أوساط

الناقمين على الحكم الأموي والمطالبين بدم الحسين، وتستجيب لها الجماهير بحماسة ملتبهة فكان يجيبهم القوم بعد القوم، والنفر بعد النفر من الشيعة وغيرها (٤).

(١) الطبري: ٧ / ٥١.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية الشيعية ٢ / ٥٧.

(٣) الطبري: ٧ / ٥١.

(٤) دائرة المعارف الاسلامية الشيعية: ٢ / ٥٨.

بدء التحرك وظهور المختار
ظلت هذه الحركة تعمل في اطار من السرية، كما أشرنا، حتى جاء الخبر بوفاة الخليفة
يزيد وبعده بقليل ابنه معاوية الثاني في ظروف لا زالت غير واضحة تماما. وقد سبب
ذلك
أزمة حكم قاسية في عاصمة الخلافة الأموية لم تخرج منها الأسرة الحاكمة الا
بصعوبة... (وقد ذكرنا ذلك في فصل سابق وتطرقنا إلى الظروف المحلية والخارجية
التي
عصفت بالحكم الأموي وكادت أن تطيح به). وبوصول أخبار التطورات السياسية في
دمشق إلى
الكوفة غمر هذه الأخيرة جو من الارتياح، نابع عن التشفي بموت الخليفة المسؤول
الأول
والرئيسي عن مقتل الحسين، وعن شعور متفائل باحداث بعض التغييرات في صورة
الحكم،
فضلا عما توفر من إمكانيات أمام التوايين للقيام بنشاطهم العلني وخروج دعوتهم إلى
حيز التنفيذ والمباشرة. حتى أن بعضهم نصح باستغلال الموقف المتدهور في الشام
(١).

(١) ابن كثير: ٨ / ٢٤٧. ينفرد البلاذري في انساب الاشراف بقوله أن التوايين قدموا
مؤعد الخروج إلى سنة ٦٤ هجري حين علموا بوفاة يزيد.

واستباق الموعد الذي حددوه للتحرك. غير أن حكمة سليمان وبعد نظره حالا دون تنفيذ هذه الرغبة، لان الدعوة لم تكن قد رسخت جذورها بعد، لا سيما في الكوفة التي افتقرت إلى التجانس ووحدة الموقف. ويبدو ان أكثر ما كان يخشاه سليمان ويحتسب له، هي تلك الفئة الانتهازية من الكوفيين، الممائلة دائما للنظام الحاكم، التي عرفت بالاشراف (١) حتى أننا نجد ان سليمان كان يصورها بأنها العدو الشرس للثورة والخصم الذي يجب التعامل معه بمنتهى الحيطة والحذر. رويدا لا تعجلوا، اني قد نظرت فيما تذكرون فرأيت أن قتلة الحسين هم أشراف أهل الكوفة وهم المطالبون بدمه، ومتى علموا ما تريدون وعلموا انهم المطلوبون كانوا أشد عليكم (٢).

وكان الابقاء على موعد التحرك بدون شك في صالح الحركة التوابية، إذ أن الاستجابة البشرية تضاعفت بعد موت يزيد (٣) وما أحدثه من ارباك في نظام الحكم، وساعد على ذلك انتقال الحركة من مرحلة السرية والعمل تحت جناح الظلام إلى دور النشاط العلني والمجاهرة الصريحة.

(١) ابن كثير ٤ / ٦٨.

(٢) الطبري: ٧ / ٥٢.

(٣) ابن كثير: ٧ / ٥٣.

ولقد تحولت الكوفة حينئذ إلى مركز حيوي للنشاط السياسي بمختلف مظاهره وأبعاده. وما لبثت الاحداث أن أخذت تتلاحق بسرعة مذهلة لتترك بصماتها على المجتمع الكوفي بصورة

عامة. ففي خلال السنة التي امتدت من وفاة يزيد إلى اعلان التوابين ثورتهم في النخيلة، تمحضت الكوفة عن أمور في غاية الخطورة، لا بد من التوقف عندها لنشير باختصار إلى أكثرها فاعلية وأشدّها تأثيراً في تاريخ تلك الفترة. والواقع ان الكوفة سارعت إلى تحديد موقفها من النظام الأموي والخروج عليه كما سبق

أن ذكرنا. فقد أعلنت الثورة في المدينة وهاجم الكوفيون دار الامارة وطرّدوا ممثل ابن زياد (١) الذي كان يقيم في البصرة وتعرض بدوره لحركة مماثلة. وقد أعقب ذلك فترة

قصيرة من الفراغ في السلطة إلى أن جرى تسليم الحكم إلى رجل اتفق عليه أشرف الكوفة

وزعمائها، وهو عامر بن مسعود (٣) الذي ما لبث ان دان بالولاء لعبد الله بن الزبير حيث تمكن في تلك الأثناء من توطيد مركزه في العراق. ولم يكن هذا الاجراء عائداً إلى اقتناع الكوفيين بسلامة هذا الموقف، وانما كان ضرورة اقتضتها المصلحة ليس أكثر. فالاشراف من جهة

(١) فلهوزن: الخوارج والشيعة ١٩٠.

(٢) ابن كثير: ٨ / ٢٤٨.

هم الذين يبدو أنهم شغلوا دورا بارزا (١) في حركة التمرد هذه، بعد أن أدركوا ان رياح الثورة الحجازية بدأت تهب بشكل عاصف على العراق، فسارعوا إلى التودد لابن الزبير ابتغاء لضمان مصالحهم السياسية والاقتصادية، واستمرارا لها. وأظهر زعماء الحزب الشيعي من جهة ثانية استنكافهم عن تسلّم الحكم برغم توفر فرص النجاح حينئذ،

لان عناصر الثورة أرادت المسير وفقا للخطة التي تم وضعها وتدور حول هدف محدد وثابت

هو الانتقام، وكان في ذلك تأكيدا على التجرد والمثالية والالتزام بالمبدأ.. هذه الأفكار تشربها التوابون بكل عمق الايمان، وانعكست على حركتهم، فطبعها بطابع مميز وفريد.

وبسرعة غير متوقعة انتقل العراق إلى سيادة الحزب الزبيري وغدت الكوفة مرتبطة بثورة الحجاز التي انتفضت على النظام الأموي وهزت دعائمه بعنف، وتقبل شيعة الكوفة هذه السيادة الجديدة، ولكن بفتور وبشيء من التحفظ. فهي بنظرهم انقلاب على النظام الذي

مجوه وعارضوه طويلا.. غير أن العداوة المشتركة التي وحدث مشاعر الطرفين ضد الأمويين، لم تمنع الحركة التوابية من رفض الاعتراف بالحزب الزبيري كبديل مثالي للسيادة الأموية.

(١) فلهوزن: الخوارج والشيعية ١٩٠.

وفي تلك الأثناء كان ابن الزبير يعمل على تأكيد سلطته في الأقاليم التي خضعت له بعد أن أصبح الرجل القوي في العالم الإسلامي. وأخذ عماله الذين انتدبهم لإدارة هذه الأقاليم يصلون تباعاً. ففي الكوفة التي يهمنها الوقوف على التطورات السياسية فيها عشية خروج التوابين، أرسل إليها اثنين من عماله أحدهما اختص بشؤون السياسية والحرب

هو عبد الله بن يزيد الأنصاري (١)، وثانيهما انصرف إلى شؤون الإدارة والخراج وهو إبراهيم ابن محمد بن طلحة (٢)، حفيد الصحابي المعروف طلحة بن عبيد الله. وانتهت بذلك

تلك الفترة الانتقالية التي تولاها باسم الحزب الزبيري، عامر بن مسعود، لتصبح الكوفة إحدى ولايات الخلافة الزبيرية.

ولم تقتصر أحداث الكوفة على هذه التغييرات السياسية المهمة، وإنما شهدت أحداثاً أخرى على قدر كبير من الخطورة، كادت أن تمزق الجبهة الشيعية، وان تبعثر قواها، وذلك

بظهور أحد المغامرين بصورة فجائية في الكوفة حينئذ، هو المختار بن أبي عبيد الثقفي (٣). وكان هذا الأخير شخصية مثيرة دار حولها كثير من الجدل،

(١) الطبري: ٧ / ٥٣، ابن كثير: ٨ / ٢٤٨.

(٢) الطبري: ٧ / ٥٣، ابن كثير: ٨ / ٢٤٨.

(٣) الطبري: ٧ / ٥٣.

فقد ارتبط منذ نشأته بالحركة الشيعية وتربى في وسط شيعي مشبع بالاخلاص والحب
لعلي
وأبنائه (١)، ثم أعد نفسه ليكون أحد أركان الثورة التي كان مقدرًا أن يقودها
الحسين،
حيث سبق هذا الأخير إلى الكوفة ليشترك في تهيئة المناخ الملائم للثورة، ولكن عامل
العراق الأموي قبض عليه وأودعه السجن مع عدد من الزعماء الشيعيين (٢). وظل في
سجنه
حتى أفرج عنه بعد توسط صهره عبد الله بن عمر لدى الخليفة يزيد (٣). فغادر الكوفة
إلى
الحجاز وفي نفسه حقد لا يوصف ضد الأمويين وعاملهم ابن زياد (٤). ولهذا لم يتردد
في
الاشتراك مع ابن الزبير في ثورته التي وجد فيها بعض أهدافه وهي العمل على مقاومة
النظام الأموي بدون هوادة. غير أن الانجسام لم يستمر طويلا بين الرجلين، فالمختار
كانت له مطامحه السياسية وأحلامه الاستقلالية، لذلك ما لبث ان زهد بدور التابع لابن
الزبير وقفل عائدا إلى الكوفة بعد أن سمع بطرد ابن زياد من العراق، فقد كانت
الكوفة على الدوام قبلة طموحه ووجد انها الأرض الملائمة لتحقيق هذا الطموح.. وقد
بلغ من اهتمامه بها انه كان يستفسر عن أحوالها من الوافدين إلى

(١) بيضون: زكار: تاريخ العرب السياسي ١١٤ - ١١٥

(٢) فلهوزن: للخوارج والشيعية ١٩٨.

(٣) اليعقوبي: ٢ / ٢٥٨، ابن كثير: ٨ / ٢٤٩.

(٤) ابن كثير: ٢ / ٢٤٩.

الحجاز، حيث حدثه أحدهم (١) عن أهلها بقوله: انهم في صلاح واتساق على طاعة ابن الزبير، الا ان طائفة من الناس إليهم عدد أهل مصر لو كان لهم رجل يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض إلى يوم ما (٢). فأجابه المختار: أنا أبو اسحق، أنا والله لهم، أنا أجمعهم على مر الحق، وأنفي بهم ركبان الباطل وأقتل بهم كل جبار عنيد (٣). وهكذا جاء المختار إلى الكوفة، تتجاذبه أحلام السيادة والتحكم على المدينة بسهولة ويسر، معتمدا على تردد شيعتها من حكومة ابن الزبير، ومحاولة استقطابهم عن طريق شعار الثأر للحسين وهو نفس الشعار الذي طرحه التوابون، وتبعته جماهير الكوفة الشيعية من أجله. ولكن المختار اختلف عنهم بأنه ذهب إلى أبعد من الانتقام والتكفير عن الذنب، إلى السعي لاستلام الحكم (٤) وهو أمر رفضه التوابون. ولكي يزيد حجته تسويغا، ويضفي على حركته نوعا من الشرعية، زعم أن

(١) هاني بن أبي حية الوادعي، الطبري ٧ / ٦٣.

(٢) الطبري: ٧ / ٦٣.

(٣) الطبري: ٧ / ٦٣.

(٤) J. Perier vie Dal - hadjdadj ٢٥

أحد زعماء الأسرة العلوية (١) أرسله للدعوة باسمه في الكوفة. ولكن محاولات المختار لاستقطاب شيعة الكوفة تحت زعامته لم تصادف ما كان يتوقع لها من نجاح، لان فئة قليلة فقط استهوتها شخصية المختار واقتنعت بدعوته، بينما ظلت الأغلبية على تأييدها لابن سرد (٢)، ولم تتأثر بالحملة الدعائية الواسعة التي أحاط بها نفسه وهو في طريقه إلى الكوفة وبعد وصوله إليها حتى أنها شككت بصحة ادعائه عن علاقته بمحمد بن الحنفية (٣). ولما أدرك ان معركته مع سليمان معركة خاسرة أخذ يصعد حملات التشهير ضد هذا الأخير متهما إياه بقصر النظر وعدم الكفاءة لقيادة الثورة الشيعية الهادفة إلى الانتقام من قتلة الحسين ان سليمان ليس له بصر بالحرب، ولا تجربة بالأمر، وانما يريد أن يخرجكم فيقتلكم ويقتل نفسه، وأنا أعمل على مثال قد مثل لي، وأمر قد بين لي، فيه عز وليكم وقتل عدوكم وشفاء صدوركم، فاسمعوا قولي وأطيعوا أمري (٤).

(١) يتفق معظم المؤرخين على أن المختار خرج من الحجاز باسم الدعوة لمحمد بن الحنفية، اليعقوبي ٢ / ٢٥٨، الطبري ٧ / ٦٤.
(٢) ابن كثير: ٨ / ٢٥٠.
(٣) فلهوزن: الخوارج والشيعة ٢٠٤.
(٤) ابن الأثير: ٤ / ٧٢.

هذه الحملة النفسية التي قام بها المختار، لم يكن لها كبير أثر على جماعة التوابين الذين بلغوا من الاندفاع حدا بعيدا، وأصبح من المستحيل عليهم، التراجع أو التوقف عن الهدف الذي اقتنعوا به وآمنوا كل الايمان. وعلى العكس من ذلك فان نشاط المختار

انقلب عليه، واشتدت مخاوف السلطة وأنصارها من تحركاته، حتى أن زبانية الحكم التي

انتقل ولاؤها بسرعة مذهلة من النظام الأموي إلى نظام ابن الزبير، ثقل عليها وجود المختار في الكوفة فشكا نفر (١) منها خطورة هذا الرجل إلى عاملي المدينة بقوله: ان المختار أشد عليكم من سليمان بن صرد. ان سليمان انما خرج يقاتل عدوكم ويذله لكم

وقد خرج عن بلادكم، وان المختار انما يريد أن يثبت في مصركم، فسيروا اليه وأوثقوه

في الحديد وخذلوه في السجن حتى يستقيم أمر الناس (٢). وهكذا انتهى أمر المختار سجيناً في الكوفة، ينتظر مرة أخرى من وراء قضبان السجن ما

تؤول اليه الأمور وما تسفر عنه الاحداث.. ولعله أدرك ان الفرصة ستلوح له من جديد بعد التخلص من منافسة زعيم التوابين، حيث

(١) عمر بن سعد بن أبي وقاص، شيب بن ربيعي، يزيد بن الحارث بن رويم. طبري ٧ / ٦٥، ابن الأثير ٤ / ٧٣.

(٢) طبري: ٧ / ٦٥، ابن الأثير: ٤ / ٧٣.

كان يتوقع الفشل الذريع لحركة هذا الأخير، فتخلو له الساحة حينئذ ويصبح الزعيم المنتظر لشيعة الكوفة. ولهذا لم يعد يتورع عن التصريح بين الحين والآخر، مباركاً التحرك الذي يقوده سليمان والحث على اعلان الثورة والخروج من الكوفة. وفي سجنه كان

المختار لا ينفك يردد على مسامع زائريه انه لن يتخلى مطلقاً عما سعى اليه وجاء من أجله، أو يتوقف لحظة عن السير في حملته الانتقامية، التي كانت عصب دعوته الرئيسي في

معاقة المسؤولين عن دم الحسين، والمضي في ملاحقتهم أياً كانوا وفي أي أرض ذهبوا إليها أما ورب البحار، والنخيل والأشجار، والمهامة والقفار، والملائكة الأبرار، والمصطفين الأخيار، لأقتلن كل جبار بكل لدن خطار ومهند بتار في جموع من الأنصار

ليسوا بميل أعمار ولا بعزل أشرار. حتى إذا أقمت عمود الدين وزايلت شعب صدع المسلمين

وشفيت غليل صدور المؤمنين وأدركت بثأر أولاد النبيين، لم يكبر علي زوال الدنيا ولم أحفل بالموت إذا أتى (١).

فاز سليمان إذا في معركة الزعامة الشيعية ضد هذا المغامر الدخيل، الذي قدم من الحجاز باحثاً عن الزعامة ومنتعشاً إلى السلطة. وفي تلك الأثناء كانت الحركة التوابية تدخل مرحلتها الحاسمة والصعبة، وكان زعماءها

(١) طبري ٧ / ٦٦، ابن الأثير ٤ / ٧٣، ابن كثير ٨ / ٢٥٠.

يصعدون الجهود ويركزون الحملات الإعلامية عبر اتجاهين رئيسيين. أولاً: عن طريق التبشير بأفكار الدعوة (١) والمفهوم الحقيقي للتحرك. وثانياً: عن طريق القيام بعروض شبه عسكرية والتجوال في شوارع الكوفة وأسواقها مع سواها من المدن (٢) لاستشارة الجماهير واجتذاب أكبر عدد من المتطوعين للحركة.

كانت سنة خمس وستين للهجرة (٦٨٤ م) قد حلت، وفي هذه السنة خرجت حركة التوايين من

محتواها التخطيطي وإطارها التبشيري إلى مرحلة التنفيذ الحاسم. فلم يعد يفصلها غير شهور قليلة عن موعدها الفاصل الذي حددته لانطلاقتها من (النخيلة). ومعنى ذلك أن الفئات الشيعية التي التزمت مبدئياً بالحركة، كان عليها أن تبادر إلى تحمل مسؤوليةيتها بالسرعة الممكنة. ولكن الذي حدث ان عدد المنتمين فعليا إلى الحركة حينئذ

كان لا يزال قليلاً (٣)،

-
- (١) كان من أبرز الدعاة حماسة واندفاعاً عبد الله المري الذي كان يردد: ويل للقاتل وملامة للخاذل! ان الله لم يجعل لقاتله حجة، ولا لخاذه معذرة - الا ان يناصر الله في التوبة فيجاهد القاتلين وينابذ القاسطين. فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويقيّل العثرة. انا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته، والى جهاد المحليين والمارقين الطبري: ٧ / ٥٢.
- (٢) الطبري: ٧ / ٥٥.
- (٣) ابن كثير: ٨ / ٥٥١.

بينهم الكثير ممن يعوزهم الانضباط والقناعة. وكان أشد التوايين ارتباكا بهذه النتيجة وأكثرهم انزعاجا هو زعيم الحركة الذي وجد أن هذا العدد (١) لا يتناسب مع حجم القضية التي يقاتلون في سبيلها. وكان لا بد من تصعيد لعمليات الدعاية من أجل استقطاب المزيد من المؤيدين.. ومن الشعارات التي كثر تردادها حينئذ: من أراد الجنة فليلتحق بسليمان في النخيلة.. من أراد التوبة فليلتحق بسليمان (٢) إلى غير ذلك من الشعارات التي لم تخرج عن إطار الغفران والتكفير عن الذنب. ولقد أعطت هذه الحملة بعض ثمارها ولاقت قدرا من التجاوب، ولكن المسألة لم تكن في جمع المؤيدين في أسواق الكوفة (٣) بل فيمن يمتلك القدرة على الصمود والاستمرار عندما ترفع راية الحرب ويتعالى صورت النفير، وهؤلاء لم يتجاوز عددهم في بادئ الامر الألف مقاتل، ثم ارتفع هذا العدد مع تصعيد الحملات الدعائية إلى نحو أربعة آلاف مقاتل (٤) كانوا جميعا مستعدين

-
- (١) ابن الأثير: ٤ / ٧٤.
(٢) الفتوح لابن الأعمش الكوفي (مخطوطة).
(٣) قيل إن عدد المتطوعين ارتفع إلى نحو عشرين ألفا. ابن كثير ٨ / ٢٥١.
(٤) ابن كثير: ٨ / ٢٥١.

للمسير حتى نهاية الشوط والاشترك الفعلي في حرب الأمويين. وإذا أردنا تفسير هذا التجاوب المحدود لحركة التوايين عندما بدأت تحركها الجدي، فإنه يعود بدون ريب إلى جو الكوفة المشحون حينئذ بالبلبله والصراعات السياسية بعد خضوعها للحزب الزبيرى. فقد كان السواد من الناس في حالة ترقب وانتظار ما تسفر عنه

الاحداث.. فضلا عن خلخلة الموقف على صعيد الجبهة الشيعية بمجيء المخترار إلى الكوفة

وتأثيره على نفر من الشيعة الذين غادروا معسكر سليمان وانضموا اليه (١). كذلك فان حركة التوايين كحركة مثالية، مجردة من أي هدف سياسي معين، كان هدفها الرئيسي هو

الانتقام للحسين والموت في سبيله.. وهذا ما يمكننا أن نعزو اليه ضعف الاستجابة نوعيا، والقلة العددية التي شاركت بصورة فعالة في حركة التوايين. ولقد سبق التحرك العسكري، انعقاد مؤتمر لزعماء التوايين لبحث الموقف العام وتوزيع المسؤوليات على العناصر القيادية ومناقشة اقتراحاتها حول كيفية التحرك والخطوات التمهيديّة اللازمة. وكان هناك اتجاه على

(١) ابن الأثير: ٤ / ٧٤.

رأسه عبد الله بن سعيد بن نفييل (١) نحو القيام بعمليات انتقامية داخل الكوفة
تستهدف

بعض الاشراف المتهمين بتواطئهم مع النظام الأموي، ولكن سليمان رفض هذا الرأي
وأصر
على أن الهدف أولاً هو رأس عبيد الله بن زياد (٢) الذي بات المسؤول الأول بعد
موت

يزيد بن معاوية، ثم تأتي بعد ذلك مسألة الكوفة وأشرافها ان الذي قتل صاحبكم وعبي
الجنود اليه، وقال لا أمان له عندي دون أن يستسلم فأمضي فيه حكمي هذا الفاسق ابن
الفاسق عبيد الله بن زياد، فسيروا إلى عدوكم مع الله، فان يظهركم الله عليه رجونا
أن يكون من بعده أهون شوكة منه ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم
في عافية

فتنظرون إلى كل من شرك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تغشموا، وان تستشهدوا فإنما
قاتلتم المحليين وما عند الله خير للابرار لأحب أن تجعلوا حدكم وشوكتكم بأول
المحليين. ولو قاتلتم أهل مصركم ما عدم رجل ان يرى رجلا قد قتل أخاه وأباه
وحميمه

أو رجلا لم يكن يريد قتله. فاستخبروا الله وسيروا (٣).

(١) ابن الأثير: ٦٨ / ٤ .

(٢) الطبري: ٦٨ / ٧ .

(٣) رد سليمان على عبد الله بن سعد بن نفييل، الطبري: ٦٨ / ٧، ابن الأثير: ٧٤ / ٤ .

ومن الواضح ان المنطق وبعد النظر يتجليان في موقف زعيم التوابين الذي لم يرد
لحركته
ان تخفق في مكانها في الكوفة، لان ذلك سيثير بدون شك حساسيات قبلية وسيفجر
صراعات
داخلية، وبالتالي سيؤدي إلى استهلاك الحركة بدون طائل.
وبعد تشاور، رأى زعماء الحركة ان قتلة الحسين موزعون في أنحاء الأرض، وليس
سهلا أن
تطالهم سيوف التوابين كما يتصور البعض. لذلك ارتأوا أخيرا أن تكون الشام (قاعدة
الطغيان) هدف حملتهم العسكرية التي يعدون لها.. فهي مركز السلطة الأموية،
المسؤولة
قبل أي أحد عن قتل الحسين. وفي رأيهم ان النظام هو الذي ينبغي أن يحاسب وليس
الاشخاص (١) لان هؤلاء كانوا فقط الأداة التي نفذت الأوامر وقامت بما طلب منها
خير
قيام.

(١) دائرة المعارف الاسلامية الشيعية ٢ / ٥٨.

التحرك

بعد أن توفر للتوابع هذه المعطيات، خطوا خطوتهم العملية الأولى على طريق الانتقام والتكفير عن الذنب، فغادروا الكوفة ليلة الجمعة في الخامس من ربيع الثاني سنة ٦٥ هجري / التاسع عشر من تشرين الثاني سنة ٦٨٤ م، ووجهتهم (النخيلة) المكان الذي ستلتقي فيه وفود المتطوعين الذين تعاهدوا على الالتحاق بإخوانهم في الموعد المحدد. وبعد إقامة سليمان ورفاقه أيام ثلاثة (١) في المعسكر، لم تكن الاستجابة في المستوى المقدر لها، وانخفض العدد الذي التزم بالخروج مع زعيم الحركة إلى الربع تقريبا، حيث قدر ان آخر ما وصل اليه تجمع التوابع في النخيلة لم يتجاوز الأربعة آلاف مقاتل (٢)، وربما انخفض إلى ثلاثة آلاف وثلاثمائة مقاتل ابان المعركة الفاصلة (٣).

(١) الطبري: ٧ / ٦٧.

(٢) الطبري: ٧ / ٦٧، ابن الأثير: ٨ / ٢٥٢.

(٣) الفتوح لابن الأعمش الكوفي، نسخة اسطنبول، (مخطوطة).

وكان من أبرز المتخلفين شيعة المدائن والبصرة (١) فضلا عن تخلف عدد غير قليل من شيعة الكوفة..

وما كان لعزوف الكثيرين عن تلبية دعوة سليمان في (النخيلة) أي تأثير على معنويات زعماء الحركة أو أي انعكاس على عزائمهم الثابتة. فقد بلغ بهم الايمان حدا جعلهم لا يفكرون الا بالهدف الذي خرجوا من أجله، ولن يعيقهم عن تحقيقه عائق مهما بدت الطريق

اليه صعبة وشائكة. وما أروع ما جاء في خطاب سليمان، في تلك الفترة الحرجة التي لا

يصمد فيها سوى أصحاب الايمان، متحدثا عن محتوى الهدف الذي هم سائرون لتحقيقه:

ايها الناس فان الله قد علم ما تنوون، وما خرجتم تطلبون، وان للدنيا تجارا وللآخرة تجارا. فأما تاجر الآخرة فساع إليها منتصب بتطلابها لا يشتري بها ثمنا لا يرى الا قائما وقاعدا وراكعا وساجدا، لا يطلب ذهباً ولا فضة، ولا دنيا ولا لذة. واما تاجر الدنيا فمكب عليها راتع فيها لا يتغني بها بدلا. فعليكم يرحمكم الله في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل، وبذكر الله كثيرا على كل حال وتقربوا

إلى الله جل ذكره بكل خير قدرتم عليه حتى تلقوا هذا العدو والمحل القاسط فتجاهدوه،

فإنكم لن تتوسلوا إلى ربكم بشيء هو أعظم

(١) الطبري: ٧ / ٦٩.

ثوابا من الجهاد والصلاة، فان الجهاد سنام العمل جعلنا الله وإياكم العباد الصالحين والمجاهدين الصابرين على الأواء. وانا مدلجون الليلة من منزلنا هذا ان شاء الله فأدلجوا (١).

كان لهذه الخطبة تأثيرها الجلي في نفوس التوابين، وفي تهيئة المناخ المثالي والملائم للبدء في عملية التنفيذ... واطمأن سليمان في أعماقه وأيقن ان القوم في (النخيلة) سائرون معه دونما تردد. فغادروا جميعا المعسكر متخذين طريق كربلاء حيث

قبر الحسين حاملين اليه آلامهم بكل تفجعها وذنوبهم وقد بلغت من الثقل حدا لا يطاق... وأي لقاء سيكون أشد ايلاما وأقسى مرارة من لقاء التوابين بالحسين، لقاء المذنب المستغفر في حضرة صاحب الشفاعة، لقاء المتخاذل عن نصره الحق في مقام شهيد

الحق. كان ذلك مواجهة مباشرة مع الذنوب، مع الخطايا، مع الضمير الذي استفاق.. مواجهة تجلت فيها ضخامة المأساة، وقتلت لديهم كل احساس بالكبرياء ورغبة في العيش،

وفوق ذلك كان تجمعهم حول قبر الحسين، جزءا من التحرك الذي حانت ساعة تنفيذه... فهو

لن يقتصر على الانفعالات وطلب الغفران، وانما كانت له

(١) الطبري: ٧ / ٦٩.

أيضا أبعاده السياسية لتكريس الميثاق الذي التزموا به، ووضع أنفسهم في أجواء الشهادة التي بلغت أسمى درجاتها البطولية مع سقوط الحسين في كربلاء. وقد يذهب بنا الخيال بعيدا إلى ذلك الزمن، وينقلنا إلى تلك الأرض، فنتصور رهبة اللقاء وضجيج التوابين وهم يدورون حول قبر الحسين، ينشدون بصوت موحد نشيد الغفران

والتوبة، ويهزجون بايمان عميق أهزوجة الموت والشهادة: اللهم انا خذلنا ابن بنت نبينا، وقد أسأنا وأخطأنا، فاغفر لنا ما قد مضى من ذنوبنا، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم. اللهم ارحم الحسين، الشهيد ابن الشهيد وارحم إخواننا الذين حصنوا أنفسهم معه بالشهادة. اللهم إن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين (١). وفي أثناء ذلك، كانت أخبار التحرك والاستعدادات تتسرب إلى مسامع أشرف الكوفة، الذين أحدق بهم الخوف والهلع على مصيرهم. وكان أشدهم قلقا عمر بن سعد الذي التجأ إلى قصر الامارة طلبا للحماية والأمان (٢).

(١) الفتوح لابن الأعمش الكوفي، (مخطوطة) ١ / ٢٥٥ - ٢٦٧ - نسخة اسطنبول.
(٢) الطبري: ٧ / ٦٨، ابن الأثير ٤ / ٧٤.

ولقد سبق لهؤلاء الاشراف أن ألحوا كثيرا على أمير الكوفة الزبيرى (١) لضرب جماعة التوابين قبل أن يقوى أمرهم ويشتد خطرهم. ولكنه لم يتأثر لضغوطهم أو ينساق مع مصالحه السياسية - باعتباره ممثلا لابن الزبير - المتعارضة مع آمال التوابين وتطلعاتهم. وللحقيقة، فإن أمير الكوفة تصرف بموضوعية وإخلاص في معالجة مسألة التوابين، وقد ظهر ذلك في جوابه للزمرة من الاشراف: الله بيننا وبينهم! ان هم قاتلونا قاتلناهم، وان تركونا لم نطلبهم (٢). لم الخوف من التوابين.. أهو الذي قتل الحسين؟ (٣) على حد تعبيره.. فهو لم يتردد من لعن قاتله أمام الاشراف وبعضهم اشترك في الجريمة. وفي نفس الوقت جاهر برأيه في خطبة له في مسجد الكوفة.. لقد أصبت

بمقتله رحمة الله عليه، فان هؤلاء القوم - ويقصد التوابين - آمنون، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ليسيروا إلى من قاتل الحسين فقد أقبل إليهم وأنا لهم على قاتله ظهير (٤).

لم يكن هناك إذا تضارب بين أمير الكوفة وبين أمير التوابين، أو تنافس بينهما على السلطة. فحركة هذا الأخير

(١) عبد الله بن يزيد الأنصاري.

(٢) الطبري: ٧ / ٥٣.

(٣) الطبري: ٧ / ٥٣.

(٤) الطبري: ٧ / ٥٤.

وضحت هويتها وتبلورت أهدافها.. وهي في شتى الأحوال تخدم مصالح أمير الكوفة
وسيده

خليفة الحجاز، فهي كحركة ثورية موجهة ضد النظام الأموي - العدو الرئيسي
والمشترك

للحزبين الشيعي والزييري - تؤدي بالنتيجة إلى استنزاف طاقات الأمويين وتؤخر
استعداداتهم الحربية لاسترجاع العراق، ومن ثم الحزب الزييري في عرينه. هذا المنطق
يمكن تفسيره كأساس للعلاقات بين الحزبين التي سبقت ورافقت تحرك التوايين، وهو
ما

اعتمده بعض المؤرخين (١) في تصويره للموقف في الكوفة عشية التحرك.
وقد يحتوي هذا المؤشر بعض المبالغة، وقد يكون ناتجا عن تقدير خاطئ. فإذا كان
يعبر

عن منطق الحزب الزييري واستراتيجيته، فإنه ليس كذلك بالنسبة لممثل الحزب في
الكوفة،

الذي كانت له نظراته المختلفة في هذا الامر. ومن الانصاف أن لا نغفل دور هذا الرجل
الذي شغله بكل مسؤولية، وهو دور الناصح بالتخلي عن هذه الحركة الانتحارية
والتسلح

بالصبر والتروي.. لان هدفه كان منصبا حول اجتذابهم إلى الحزب الزييري وتشكيل
جبهة

قوية ضد الأمويين (٢) بدل أن تتبعثر القوى،

(١) الخربوطلي: تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي ١٣٥ - ١٣٦.

(٢) الطبري: ٧ / ٦٩.

وتنصرف الجهود في غير مواقعها الأساسية.
ولكن سليمان وجماعته، كانوا قد بلغوا نقطة اللا رجوع في القرار الحاسم الذي
اتخذوه

والتزموا مصيريا بتنفيذه لقد خرجنا لامر ونحن نسأل الله العزيمه على الرشد
والتسديد لأصوبه، ولا ترانا الا شاخصين (١).

وبعد خروج التوابين إلى قبر الحسين، لم يتكاسل عبد الله بن يزيد (أمير الكوفة) عن
إسداء النصيحة مرة أخرى لسليمان، محاولا باخلاص ان يثنيه عن قراره وطالبا اليه
تأخير موعد التحرك، فذلك أسلم عاقبة وأضمن نتيجة لسلامة الحركة وشريكها في
مناهضة

الأمويين، الحزب الزبيري، مصورا له ضخامة الجيش الأموي الذي بدأ يزحف حينئذ
باتجاه

العراق، وما يقابله من ضآلة حجم المتطوعين مؤكدا من جديد على ضرورة توحيد
الجهود

وتكاتف الأيدي للوقوف في وجه عدو قوي وعنيد. فقد كتب إلى سليمان قائلا: أما
بعد

فان كتابي لكم كتاب ناصح مشفق، تريدون المسير بالعدد اليسير إلى الجمع الكثير
والجيش الكبير. وقد علمتم انه من أراد أن يقلع الجبال من أماكنها تكل معاوله ولا
تظفر بحاجته. فيا قومنا لا تطمعوا عدوكم في أهل بلدكم فإنكم خيار قومكم، ومتى
ظفر

بكم عدوكم طمع في غيركم من أهل

(١) الطبري: ٧ / ٦٩.

مصركم وهلاككم ومن خلفكم. يا قومنا انهم ان يظهروا عليكم يرموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا، فارجعوا واجعلوا أيدينا وأيديكم اليوم واحدة على عدونا وعدوكم، فإنه متى اجتمعت كلمتنا ثقلنا على عدونا فلا تستعيبوا نصحي ولا تخالفوا أمري، واقبلوا حين تقرأون كتابي هذا أقبل بكم إلى طاعته وأدبر بكم عن معصيته والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (١).

ان أحدا لا يستطيع أن يرتاب في موقف أمير الكوفة الزبيري نحو التوابين أو يشكك في مدى إخلاصه حين دعاهم إلى التريث والتراجع، حتى أن سليمان نفسه لم يجد في نصيحة الأمير الا الصدق والإخلاص. ولكن المسألة خرجت عن حدود النصيحة وتعدت اطار المنطق، فالتوابون حينئذ كانوا أشبه بمركبة أفلت زمامها وانجرفت في الوادي السحيق، إلى درجة استحال معها أن تتوقف أو تخفف بعض اندفاعها.. فقد كانوا معبئين لسنوات خمس مضت بشحنات متراكمة من العواطف السخية، بحيث انها خلقت منهم شخصيات مغامرة تطبعت بروح الفداء واستهوتها التضحية. وفي كل الحالات كان

(١) الفتوح لابن الأعمش الكوفي (مخطوطة) ٢٦٠ - نسخة اسطنبول.

منطق واحد يوجه تحركاتهم، بدون ضابط، هو منطق العاطفة الجامحة، بما فيه من مثالية وتجرد واندفاع. وكان من الطبيعي ان يتعارض منطقهم هذا مع منطق أمير الكوفة، وان تكون صرخة هذا الأخير في غير محلها ولا تلاقي من يصغي إليها في صفوف التوابين (١).

فقد اعتمدت منطق العقل في تصوير الموقف السياسي في الكوفة وفي تحسيد الخطر الذي

يتهددها على يد الأمويين إذا ما استمرت جبهتها في التمزق وقواها في التبعر. أنهى سليمان قراءة الكتاب الذي وصله من أمير الكوفة بتنهيده رافقها هذا البيت من الشعر:

أرى لك شكلا غير شكلي فأقصرى *** عن اللوم إذ بدلت واختلف الشكل (٢)
وهو لا شك يعبر بصدق عن التناقض في المواقف والأهداف بين كل من التوابين وبين ممثل

ابن الزبير في الكوفة.. فلم يكن هناك - أي رابط مبدئي يربطهم بهذا الأخير، أو يدفعهم إلى التعاون معه انا وهؤلاء مختلفون... ولا أرى الجهاد مع ابن الزبير الا ضلالا،

(١) الطبري: ٧ / ٧١ - ٧٢.

(٢) الطبري: ٧ / ٧٢.

وأنا ان نحن ظهرنا رددنا هذا الامر إلى أهله، وان أصبنا فعلى نياتنا تائبين من ذنوبنا (١).

ولعل من المفيد ان نعود قليلا إلى الورا، لتلمس انعكاسات الحركة التوابية على الوضع العام في الكوفة، منذ أن خرجت من سريتها الحذرة إلى العلنية الجريئة، وأخذ قادتها يصعدون الموقف بخطبهم الملتهبة بعد موت يزيد بن معاوية. فقد اندفعت الجماهير إلى قصر الامارة وأطاحت بالأمير الأموي ونصبت مكانه أميرا آخر يدين بالولاء للحزب الزبيري. وفي الحقيقة كان فضل التوابين ظاهرا في تهيئة الظروف أمام هذا الحزب لاستلام السلطة، وكان من الممكن لاي حركة سياسية، اضطلعت بهذا الدول، ان تتحول إلى شريك رئيسي في الحكم الزبيري حينئذ. ولكن حركة التوابين، كما عرفنا، كانت

لها همومها البعيدة كل البعد عن استلام الحكم أو المشاركة فيه، أو حتى المباركة في أدنى الاحتمالات. لذلك كان تعاملهم مع نظام ابن الزبير تعاملًا محدودًا، وفي نطاق ما يوفره لهم من حرية التحرك وعدم إثارة المشاكل التي يمكن ان تعيقهم عن تحقيق ما التزموه بتنفيذه وما أخذوه على أنفسهم من ميثاق.

(١) الطبري: ٧ / ٧٢.

وانطلاقاً من هذا المبدأ رفض سليمان دعوة أمير الكوفة إلى التراجع برغم ما فيها من اخلاص وتودد. وكان قد وصل إلى مكان يقال له (هيت) (١) ومن هناك أجابه برسالة لا تخلو

من استحسان ظاهر لموقفه المسؤول وسلامة نواياه: أما بعد فقد قرأنا كتابك أيها الأمير، وفهمنا ما نويت، فنعم أخو العشيرة أنت ما علمناك في المشهد بالمغيب، غير أنا سمعنا الله تعالى يقول في كتابه وقوله الحق (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به فذلك هو الفوز العظيم) (٢). وأعلمك أيها الأمير ان القوم قد استبشروا ببيعهم الذي بايعوه وقد تابوا اليه من عظيم ذنوبهم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته (٣). أدرك أمير الكوفة عبث ندائه إلى التوايين بالتراجع، وتأكد له أن القوم سائرون إلى أقدارهم بعزيمة ثابتة لملاقاة

(١) الطبري: ٧ / ٧٢.

(٢) القرآن الكريم: التوبة ١١١.

(٣) الفتوح لابن الأعمش الكوفي ٢٦٠. نسخة اسطنبول (مخطوطة).

موتهم البطولي. فالتفت إلى الحاضرين في ديوانه مردداً وكأنه يسر إلى نفسه:
استمات القوم ورب الكعبة، وأول خير يأتيكم عنهم بأنهم قتلوا بأجمعهم والله لا
قتلوا حتى يكثر القتل بينهم وبين عدوهم (١).
فرغت الكوفة حينئذ من زعماء التوابين الذين غادروها وهم في ذروة الحماسة إلى
(النخيلة)، المعسكر الذي هرع إليه رفاق آخرون، اشتركوا معهم في تلك المسيرة
النضالية الرائعة، لخوض معركة الانتقام البطولي ضد النظام الأموي ولضرب ما عبروا
عنه بقواعد الطغيان والظلم. وكانت بعض العناصر الشيعية التي استهوتها حركة سليمان
قد أخذت بدورها تغادر الكوفة تباعاً وتلتحق بمركز التجمع في (النخيلة)، دونما
التزام، أحياناً، بمواقف قبائلها التي لم تقتنع زعاماتها بدعوة سليمان ووجدت فيها
مجرد مغامرة انتحارية لا هدف منها سوى تبديد الجهود وهدر الطاقات دون أي نتيجة
إيجابية على صعيد حركة النضال الشيعي. وهذه الظاهرة كانت من أبرز سمات الجيش
الذي
خاض به التوابون معركة

(١) الفتوح لابن الأعمش الكوفي ٢٦٠. نسخة اسطنبول (مخطوطة).

التكفير عن الذنب في (عين الوردية). فقد كان الانفلات من نظام القبيلة كوحدة قتالية أمرا مألوفاً إلى حد كبير، على خلاف ما عرفه التقليد العربي بصفة عامة في ميادين الحرب. وكان لهذا الواقع مدلولاً آخر، هو أن نفراً قليلاً فقط من جمهور الشيعة الكوفيين خرج إلى (النخيلة) أما الغالبية، فقد التزم بعضها بقرار القبيلة في معارضة الحركة، وبعض آخر ظل على ترده يتربص بانجلاء الأمور. أما الاشراف فقد كانوا أكثر

الفئات ابتهاجاً بخروج التوابين حيث انزاح عنهم كابوس ظل لفترة يؤرق مضاجعهم، ويفقدهم نعمة الاستقرار. وثمة شخص آخر في الكوفة، لم يكن أقل شعوراً بالفرح من الاشراف هو المختار الثقفي، وكان لا يزال في السجن ينظر من وراء قضبانه فيجد الساحة

الشيعة خالية من منافسيه، فإذا به المستفيد الأكبر من غياب التوابين. وبسرعة عاد إلى تحركه وأخذ يصعد نشاطه في أوساط الحزب الشيعي، حتى أصبح بعد قليل من الوقت

زعيم هذا الحزب غير المنافس، والى حين زعيم الكوفة بأسرها.

التقدم نحو الشام
بعد يوم وليلة من الابتهالات والتضرع حول قبر الحسين (١) مستغفرين الله وطالبيين
اليه

أن يمنحهم نعمة الشهادة، غادر التوابون كربلاء عبر الفرات إلى الأنبار ومنها إلى
القيارة وهيت. ومن هذه الأخيرة كتب سليمان بن صرد إلى أمير الكوفة عبد الله بن
يزيد جوابا على رسالته كما سبق ان أشرنا. ولقد تجنب التوابون كما هو واضح السير
عبر الصحراء، واتخذوا طريق الجزيرة. ولعل غايتهم من وراء ذلك كانت تزويد
جيشهم

بقوات إضافية من الجزيرة وبلاد الشام، حيث كانت تتواجد المعارضة القيسية بزعامة
الكلابيين أصحاب قرقيسيا (٢). خاصة وأن بعض العناصر التوابية تراجعت إلى الكوفة
(٣)

-
- (١) ابن الأثير: ٤ / ٧٥.
(٢) البصرة حاليا في سوريا، عند مصب الخابور على الفرات.
(٣) ابن كثير: ٨ / ٢٥٢ - ٢٥٣.

بعد أن فتر حماسها وأدركها الخوف عند تواتر الاخبار عن جيش كبير للأمميين زاحف من دمشق، فآثرت السلامة والعودة. ويبدو ان عددها كان محدودا فلم يؤثر على الخطة العامة للتوايين. ولكن هذا لم يمنع حاجة هؤلاء الملحة إلى المساعدات المادية والعسكرية لمجابهة نظام راسخ في دمشق وجيوش على مستوى رفيع من التنظيم. ولهذا جرت اتصالات بين سليمان بن صرد وبين زفر بن الحارث الكلابي صاحب قرقيسيا عند اقتراب التوايين من أبواب المدينة وكان المسيب بن نجبه، نائب سليمان والرجل القوي (١) في الحركة رسول سيده إلى الأمير الكلابي (٢). وكان هذا الأخير قد أمر باغلاق المدينة تحسبا للظروف، فلما قابله المسيب وعرفه بنفسه وشرح له أبعاد تحركهم هذا، أبدى تعاطفا ملحوظا معهم واستعدادا للتجاوب مع ما يطلبونه من مساعدات، دون أن ينسى تسويغ موقفه باغلاق الأبواب في وجههم: انا لم نغلق أبواب هذه المدينة الا لنعلم إيانا تريدون أم غيرنا، وما بنا عجز عن الناس وما نحب قتالكم وقد بلغنا عنكم صلاح وسيرة جميلة (٣).

(١) الطبري: ٧ / ٧٤.

(٢) الطبري: ٧ / ٧٢.

(٣) ابن الأثير: ٤ / ٧٥.

خرج موكب التوابين من قرقيسيا مزودا بما يلزمه من احتياجات اقتصرت على بعض
المواد

الغذائية، لان زفر رغم تعاطفه معهم، ورغم عداوته الشرسة للأمويين (١)، لم يمدهم
بالمطوعين ربما لأنه وجد في حركتهم من المغامرة والتهور، ما يجعل أي فرصة
للنجاح

معها مستحيلة، أو ربما لخروجه منذ أمد غير بعيد من حرب مدمرة مع الأمويين في
مرج

راهط. ولهذا لم يرد استنفاد طاقاته مرة أخرى بدون جدوى.

وفي أثناء ذلك، وفي الوقت الذي كان يواكب فيه الزعيم الكلابي جماعة التوابين

خارج

المدينة (٢) حملت اليه استخباراته معلومات غير سارة عن وجود عبيد الله بن زياد في
(الرقعة) على رأس جيش ضخم وبصحبه خمسة من كبار قادة الأمويين وأشد أعداء
الحزب

الشيوعي ضراوة وهم: الحصين بن نمير السكوني، شرحبيل بن ذي الكلاع الحميري،
أدهم بن

محرز الباهلي، ربيعه بن مخارق الغنوي، جبله بن عبد الله الخثعمي (٣).

(١) الطبري: ٧ / ٧٣.

(٢) الطبري: ٧ / ٧٣.

(٣) الطبري: ٧ / ٧٣، ابن الأثير: ٤ / ٧٥.

تهيب زفر الموقف الخطير، وخاف على ضيوفه المتهالكين على الشهادة، والمتدافعين لقتال عدو ليسوا في حجمه. فأخذ يلح عليهم بالتروي والرجوع إلى قرقيسيا والعمل على

تشكيل جبهة واحدة ضد المروانيين من بني أمية (١) ان شئتم دخلتم مدينتنا وكانت أيدينا واحدة، فإذا جاء هذا العدو قاتلناهم جميعا (٢). ولكن هذه المعلومات عن الجيش الأموي الضخم لم تستر التوايين الذين أصروا على متابعة المسيرة، ورفضوا نصيحة زفر، كما رفضوا من قبل نصيحة أمير الكوفة عبد الله بن يزيد. فقد رد سليمان على الأمير الكلابي قائلا: قد أرادنا أهل مصرنا على مثل ما أردنا عليه وذكرنا الذي ذكرت، وكتبوا إلينا بعدما فصلنا، فلم يوافقنا ذلك فلسنا فاعلين (٣). ولا بد هنا لاي متتبع لآخبار حركة التوايين، الا ان يستوقفه ذلك الصمود الرائع لهذه الحركة العظيمة، ولا بد ان تنتزع اعجابه تلك الشخصيات القيادية المرتفعة،

(١) الفتوح لابن الأعمش الكوفي. نسخة اسطنبول (مخطوطة).

(٢) ابن الأثير: ٤ / ٧٥.

(٣) الطبري: ٧ / ٧٣.

بايمانها المثالي، ونضالها الأسطوري الفريد. انها شخصيات من طراز جديد ومن معدن آخر

لا نجد لها مثيلا الا في كتب الأساطير. شخصيات أتقنت جيدا صناعة الموت، وتعدت قوانين الشهادة المعروفة، لتكتب بدمائها شرائع جديدة، ليست لندياها وانما للتاريخ. أليس مثيرا أن تقوم حركة أساسها المغامرة وعنوانها الفداء، فتمر عليها سنوات خمس

أكثرها كمنظمة سرية تعمل في الخفاء - دون أن يخبو بريقها أو تفقد شيئا من حماسها

المتأجج، حتى في المواجهة المباشرة مع الموت؟. غير أن رفض سليمان لرغبة زفر بالانكفاء إلى قرقيسيا والتحصن فيها ضد الأمويين، واصراره على التقدم لاكمال المهمة التي التزم بها مع رفاقه في مسيرتهم التكفيرية، لم يحولا دون متابعة الأمير الكلابي تحذيراته للتوايين من الخطر الداهم الذي يتهددهم، وتقديم نصائحه وخبراته بكل اخلاص لهم.. وهي توجيهات على جانب من الأهمية،

خاصة ما يتعلق بجغرافية المنطقة واستراتيجيتها ومواقع الماء فيها.. وكان آخر ما توجه به زفر للتوايين بعد أن أدرك عقم محاولاته في حملهم على التراجع: اني للقوم (أي الأمويين) عدو، وأحب أن يجعل الله عليهم الدائرة، وأنا لكم واد أحب أن يحوطكم الله بالعافية.

ان القوم قد فصلوا من الرقة فبادروهم إلى عين الوردة (١) فاجعلوا المدينة في ظهوركم ويكون الرستاق والماء والمادة في أيديكم وما بيننا وبينكم فأنتم آمنون منه. فاطووا المنازل فوالله ما رأيت جماعة قط أكرم منكم، فأني أرجو أن تسبقوهم، وان قاتلتموهم فلا تقاتلوهم في فضاء ترامونهم وتطاعنوهم فإنهم أكثر منكم ولا آمن أن يحيطوا بكم فلا تقفوا إليهم فيصرعوكم ولا تصغوا إليهم فاني لا أرى معكم رجالة ومعهم الرجالة والفرسان وبعضهم يحمي بعضا، ولكن ألقوهم في الكتائب والمقانب ثم بثوها فيما بين ميمنتهم وميسرتهم واجعلوا مع كل كتيبة أخرى إلى جانبها، فان حمل على احدى الكتيبتين رحلت الأخرى فنفست عنها. ومتى شاءت كتيبة ارتفعت ومتى شاءت كتيبة انحطت، ولو كنتم صفا واحدا فزحفت إليكم الرجالة فدفعتكم عن الصف انتفض و كانت الهزيمة (٢).

(١) رأس عين تنبع على بضعة أميال إلى الشمال من قرقيسيا على نهر الفرات، ابن الأثير : ٧٦ / ٤، جون جلوب: إمبراطورية العرب ١٣٤.
(٢) الطبري ٧ / ٧٣ - ٧٤، ابن الأثير: ٧٦ / ٤.

معركة عين الوردية
تقدم سليمان مع رفاقه في عمق الجزيرة، ونصائح الأمير الكلابي لا زالت تتردد في
أسماعه. فهذا الرجل (زفر) خبر المنطقة جيدا وأكسبته الحرب مهارة عسكرية وتجربة
واسعة، فضلا عما أظهره من تودد ظاهر وتعاطف ملموس إزاء التوايين وقضيتهم. لقد
كان
لكلماته وقعها المؤثر في نفوس هؤلاء الذين استجابوا لنصيحته وساروا في اتجاه عين
الوردية حسب الخطة التي رسمها لهم، حتى إذا وصلوها واستراحوا قليلا (١) من
مشاق
الطريق أخذ سليمان في تنظيم المقاتلين ووضع خطط الاشتباك مع الجيش الأموي الذي
أخذ
يقرب من المعسكر. وكانت أهم معالم التكتيك الذي اتبعته القيادة، تقسيم المقاتلين
إلى مجموعات صغيرة (٢) مهمتها القيام بهجمات صاعقة على طلائع وأطراف الجيش
الأموي،
للتأثير على العناصر المقاتلة فيه.

(١) ابن الأثير الخ: ٨ / ٢٥٣.

(٢) الفتوح لابن الأعمش الكوفي. نسخة اسطنبول (مخطوطة).

وبعد أن استكمل سليمان هذه الترتيبات العامة. وقف بين رفاقه خطيباً، ليضعهم نفسياً في أجواء المعركة التي دنت ساعتها. وكانت بمثابة تحليل لفكرة الخروج والغاية الأساسية التي انطلقوا في سبيلها وهي التوبة والغفران (١)، وتوضيح لمفهوم الحرب مستقي من تشريع علي، الامام ورأس الحزب الشيعي، الذي وضع مفاهيمه المثالية الأولى.

كما أشار فيها إلى موضوع القيادة وانتقالها - إذا أصيب - إلى نائبه المسيب ومنه إلى عبد الله بن سعد فعبد الله بن وال حتى آخر الخمسة القياديين، رفاة بن شداد (٢).

وأخيراً فإن هذه الخطبة كانت انعكاساً صادقاً لأخلاقية القيادة التوابية، المترفعة والمتمسكة بالمثل العليا حتى في ساحات القتال: ... فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء الليل والنهار تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ولقاء الله معذرين. فقد جاؤوكم بل جئتموهم أنتم في دارهم وحيزهم. فإذا ألقيتموهم فأصدقوهم

واصبروا ان الله مع الصابرين... لا تقتلوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم الا ان يقاتلكم بعد أن تأسروه أو يكون من قتلة إخواننا بالطف (٣) رحمة الله

(١) الطبري: ٧ / ٧٤.

(٢) الطبري: ٧ / ٧٤.

(٣) المكان الذي استشهد فيه الحسين ورفاقه في كربلاء.

عليهم، فان هذه كانت سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في أهل الدعوة... (١). وفي هذا الوقت كانت طلائع الجيش الضخم الذي أعده مروان بن الحكم تشق طريقها نحو

قرقيسيا بقيادة عبيد الله بن زياد. وكانت مهمة هذا الجيش تصفية جيوب المعارضة في العراق والمشرق ضد النظام الأموي الذي انتقلت فيه السيادة إلى المروانيين، وانتقل معها ولاء ابن زياد الذي ظل خادما أميناً ومخلصاً لهذا النظام، مستعداً لتنفيذ أصعب المهمات في سبيله، بمقدار حرصه على استمرارية مصالحه الخاصة. وقد ساعدت خبرة

هذا القائد الطويلة في شؤون العراق، على أن يكون الرجل الأكثر جدارة للقيام بهذه المهمة التي كان سائراً إلى تنفيذها بملء الثقة. ولكنها ثقة كانت في غير محلها هذه المرة، فالتغييرات السياسية والعسكرية التي شهدتها الأرض العراقية حينئذ فاقت تصوراتها، وفاته أن هذه المهمة كانت آخر مهامه في خدمة النظام الأموي، بسقوطه صريعاً

على نفس الأرض التي كانت لفترة مسرح عملياته الدموية الرهيبة.

(١) الطبري: ٧ / ٧٤، ابن الأثير: ٤ / ٧٦.

وفي الطريق إلى العراق تسربت معلومات إلى الجيش الأموي عن تحركات التوابين باتجاه
(عين الوردة) فحول ابن زياد خط سيره نحو تجمعاتهم ليكونوا أول فريسة له. ولكن
تطورات جديدة حدثت في دمشق حينذاك، كان يمكن ان تؤدي إلى ارتباك في هذا
الجيش، حين
تناقلت الاخبار موت الخليفة مروان وتعيين ابنه عبد الملك (١)، الا ان ذلك لم يترك
أي
انعكاس في صفوف الجند، أو يحدث أي تعديل في خطط الحملة، ذلك أن الخليفة
الجديد سارع
إلى تأكيد أوامر الخلافة باستئناف المهمة التي أوكلت إلى هذه الحملة وقرار قائدها
في منصبه. وبدوره كان ابن زياد أكثر تجاوبا مع سيده فأرسل اليه بيعته بالخلافة
ومعه جميع عناصر الجند في الحملة.
لم يكن سوى أيام لحسم الموقف الذي أخذ في التأزم، كلما اقترب الجيش الأموي من
معسكر
التوابين في (عين الوردة)، حيث كان ترقب مشير من جانب هؤلاء الذين وجدوا في
أعدائهم
تفوقا عدديا ظاهرا وامكانيات عسكرية مذهلة، بالمقارنة مع جنودهم القلائل
وامكانياتهم المحدودة. والواقع ان الصورة كما بدت عشية الالتحام في

(١) ٣ رمضان سنة ٦٥ هجري. تاريخ خليفة ١ / ٣٣١.

المعركة الفاصلة، غير واضحة تماما. فهناك قوى غير متكافئة ستخوض حربا هي
بالنتيجة
غير متكافئة. فالتوابون كما أشرنا قبلا، لم يطرأ على وضعهم العسكري أي تحسن،
وانما
افتقدوا بعض العناصر القتالية، فانخفض عددهم إلى ما يزيد على الثلاثة آلاف مقاتل
بقليل. وعلى العكس من ذلك كان جيش الأمويين متفوقا بصورة ملحوظة، حيث تشير
بعض
التقديرات إلى أنه جاوز العشرين ألفا (١). وهناك تقديرات أخرى لا شك انها احتوت
على
كثير من المبالغة أشارت إلى أنه بلغ الستين ألفا (٢). ولا بد ان الرقم الأول هو
الأقرب إلى الحقيقة، وكانت عناصره موزعة، وفقا للنظام الحربي التقليدي، إلى خمسة
ألوية: مقدمة ومؤخرة وقلب وجناحين. وكان على كل لواء قائد من القواد الخمسة
الذين
مر ذكرهم. وعقدت القيادة العامة طبعا لأمير الحملة عبيد الله بن زياد. اما
التوابون فقد شكلوا خطأ واحدا للتصدي بقيادة سليمان، يعاونه عبد الله بن سعد بن
نفيل على اليمين والمسيب بن نجبه على اليسرة (٣).

(١) الفتوح لابن الأعمش الكوفي. نسخة اسطنبول (مخطوطة).

(٢) تاريخ خليفة ١ / ٣٣١.

(٣) الطبري: ٧ / ٧٥.

ووصل الجيش الأموي أخيراً، وما لبث أن أخذ مواقعه في مواجهة معسكر التوابين في
(عين

الوردة) وبدأت استعداداته تتم في إطار من السرعة المتناهية لبدء عملية الالتحام
فوراً، والتخلص من هؤلاء الذين عرقلوا مسيرة الجيش وأعاقوا مهمته بعض الوقت.
ولكن

اللقاء بين المتحاربين في (عين الوردة) تأخر قليلاً، ولعل ذلك يعود إلى أن الجنود
الأمويين لم يكونوا قد استكملوا ترتيباتهم العسكرية بشكل نهائي، كما يعود إلى
محاولات القائد الأموي مفاوضة زعيم التوابين لحمله على الاستسلام والاعتراف
بخلافه

عبد الملك. وقد قبل سليمان بالمحاورة مع أعدائه وقدم إليهم شروطه للقبول بعدم
القتال (١)، لكنها كانت شروط تعجيزية وغير مقبولة أصلاً لدى الأمويين فقط طلب
إليهم

تسليمه عبید الله بن زياد (ابن مرجانة حسب تعبيره) وقتله الحسين، والانضمام إلى
صفوف شيعة آل البيت (٢).

وكان من البديهي أن يرفض القائد الأموي شروط

(١) ثابت الراوي: العراق في العصر الأموي ١٧٠.

(٢) البلاذري: انساب الاشراف ٥ / ٢١٧. الفتوح لابن الأعمش الكوفي. نسخة اسطنبول
(مخطوطة).

زعيم التوابين المستحيلة، وكان معنى ذلك أن الحرب أصبحت وشيكة الوقوع. وكانت قد وقعت فعلا واتخذت شكل مناوشات، حقق خلالها التوابون نجاحات أولية على جانب كبير من الأهمية. فقد أرسل سليمان نائبه المسيب بن نجبه على رأس أربعمائة فارس (١) نحو معسكر الأمويين حين علم بتحرك جيش أموي نحو (عين الوردة) بقيادة شرحبيل بن ذي الكلاع والحصين بن نمير السكوني (٢) فأوقع المسيب هزيمة قاسية بالجيش الأموي، أفقدته الكثير من القتلى (٣) على الرغم من التفاوت العددي الكبير بين كل من القوتين. وهذا عائد بدون ريب من ناحية إلى نجاح مخطط التوابين في الحرب الصاعقة، ومستوى الحماس الملتهب الذي بلغ حدا كبيرا. ومن ناحية أخرى إلى تفكك الجبهة الأموية واختلاف شرحبيل والحصين على القيادة العليا (٤). وكانت هذه الهزيمة بمثابة تصعيد عنيف للموقف من

-
- (١) جاء في البداية والنهاية: خمسمائة فارس، ابن كثير: ٨ / ٢٥٣.
(٢) الطبري: ٧ / ٧٥، ابن الأثير: ٤ / ٧٦.
(٣) الطبري: ٧ / ٧٥، ابن الأثير: ٤ / ٧٦.
(٤) الطبري: ٧ / ٧٥، ابن الأثير: ٤ / ٧٦.

جانب الأمويين الذين بادروا بإرسال أحد القائدين المهزومين (الحصين بن نمير) إلى (عين الوردة) ومعه اثني عشر ألفاً من الجنود حيث أصبح وجهاً لوجه مع التوابين.. وكان ذلك إيذاناً بوقوع الحرب فعلياً (١) حين اندفع التوابون من مواقعهم بقيادة سليمان بن صرد التحموا مع قوات الحصين الأموية التي تفوقهم كثيراً في العدد، وذلك في يوم الأربعاء في الثاني والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٥ هجري / ٤ كانون الثاني

٦٨٥ م بعد خمسة أيام من نزولهم في (عين الوردة) (٢). ويظهر من سير الاشتباكات الأولية أن وضع التوابين - برغم قتلهم العديدة - كان معزواً، ومعنوياتهم في ارتفاع دائم، أما الحماس فقد بلغ حداً لا يوصف، وكانت تستثيره نداءات سليمان في صحب المعركة فتزيده التهايباً وتأججاً: يا شيعة آل محمد، يا من يطلبوا بدم الشهيد ابن فاطمة، أبشروا بكرامة الله عز وجل، فوالله ما بينكم ودخول الجنة والراحة من هذه الدنيا إلا فراق الأنفس والتوبة والوفاء بالعهد (٣).

(١) ابن كثير: ٨ / ٢٥٤.

(٢) فلهوزن: الخوارج والشيعة ١٩٥.

(٣) الفتوح لابن الأعمش الكوفي. نسخة اسطنبول. (مخطوطة).

التوبة والوفاء بالعهد تلك الصرخة التي أطلقها سليمان في المعركة والشعار الذي طرحه التوابون منذ سنوات طويلة وقاسية، اقترن الآن بالفعل وحانت ساعة تنفيذه. لقد دخلوا حرب التكفير عن الذنب بأهداف مثالية وقلوب تطفح بالايمان، عبروا عنها ابان المعركة بتكسير أغمدة السيوف (١) والتقدم إلى القتال بشجاعة خارقة وحماس منقطع النظير.

دارت المعارك رهيبة، وبلغت في أيامها الثلاثة التالية (وهو الوقت الذي استغرقته الحرب) مرحلة من التصعيد غير متوقعة. فعلى جبهة التوايين الدافقة بالحيوية والنشاط، كانت تحركات المقاتلين تتم في سرعة عجيبة، والوحدات الانتحارية الصاعقة كانت تحقق

نجاحات مذهلة على أطراف ومقدمات الجيش الأموي، الامر الذي أحدث ارتباكات في صفوفه

وأفقده كثيرا من عناصره المقاتلة. ففي اليوم الأول للمعارك الجدية دار قتال ضاري بين الطرفين حسمه التوابون بهجوم عنيف على طرفي الجيش الأموي فتراجع مهزوما، تاركا وراءه الكثير من القتلى والجرحى (٢). وقد تركت هذه الهزيمة صدى استياء

(١) الطبري: ٧ / ٧٦.

(٢) قدر عدد الجيش الأموي الذي اشترك باثني عشر ألفا، كان على رأسه الحصين بن نمير السكوني. ابن الأثير: ٨ / ٢٥٤.

عميق عند القائد العام عبيد الله بن زياد وأفقده السيطرة على أعصابه، حين صب جام غضبه وقذف بشتائه أحد قواده (شرحبيل بن ذي الكلاع) متهما إياه بالتخاذل والتقصير (١).

واستؤنف القتال الضاري في اليوم الثاني. وكان وضع الجيش الأموي قد أصبح أكثر تعزيزاً، بحيث ان التوازن العسكري اختل إلى حد كبير وانعدم التكافؤ بين القوتين المتحاربتين بشكل ظاهر. غير أن الروح النضالية المغامرة التي تميزت بها أعمال التوايين، وذلك التسابق الجموح نحو الاستشهاد، نسف كل قواعد التوازن. فقد كان صمودهم بطولياً ورائعاً طوال يوم مشير، أثخن فيه الفريقان قتلاً وجراحاً (٢)، ولم تكن نتيجته على ما يبدو حاسمة لاي منهما، حتى كان اليوم الثالث (٣) وهو الأكثر إثارة

في معارك (عين الوردية) حين أطبق الجيش الأموي بكل إمكانياته على التوايين الذين أصبحوا في قلة قليلة بعد أن أفقدتهم اشتباكات اليوم السابق جزءاً كبيراً من مقاتليهم. وقد وجدوا أنفسهم في هذا اليوم محاطين من كل جانب بقوات مكثفة من أعدائهم، انقضت عليهم

(١) الطبري: ٧ / ٧٦.

(٢) الطبري: ٧ / ٧٦.

(٣) المسعودي: مروج الذهب ٣ / ٩٤.

بمنتهى العنف والشراسة. ولكن التوايين، للحقيقة، لم يتخاذلوا ولم يتخلوا مطلقاً عن إيمانهم بالقضية التي يناضلون في سبيلها، وإنما ظلوا متماسكين في جبهة واحدة مترابطة

ويقاتلون قتالاً بطولياً مستميتاً (١)، حتى أن هجماتهم الانتحارية أوقفت بعض الوقت الجنود الأمويين عن التقدم، وجعلتهم يتحاشون الالتحام المباشر معهم، فاعتمدوا النبال كسلاح رئيسي (٢) وتمكنوا بذلك من إنزال خسائر جسيمة في صفوف التوايين، مما

أدى إلى سيطرتهم أخيراً على زمام الموقف. وكان سليمان ذلك الرجل الأسطوري، يتقدم رفاقه المناضلين، بخطى ثابتة نحو قدره الذي

اختاره عن قناعة وإيمان. وفي وسط المعركة كان صوته يخترق الآذان مردداً: عباد الله من أراد البكور إلى ربه والتوبة من ذنبه والوفاء بعهده فالي (٣). وكانت هذه الكلمات آخر ما وردده القائد التوايي وهو يشق بسيفه صفوف الأمويين بكل جرأة ورباطة

جأش. ولعله عاش في تلك اللحظات لذة الانتقام وحلم الشهادة الذي أوشك أن

(١) الجمعة في ٢٤ جمادى الأولى ٦٥ هجري / ٦ كانون الثاني ٦٨٥ م. المسعودي: مروج الذهب: ٣ / ٩٤.

(٢) جون جلوب: إمبراطورية العرب ١٣٥.

(٣) الطبري: ٧ / ٧٦.

يتحقق. وحدث ذلك فعلا عندما أدركه سهم ألقى به يزيد بن الحصين، فأوقعه قتيلا وكان

له من العمر ثلاثا وتسعين سنة (١). ومن غرائب المصادفات ان تكون نهاية زعيم التوابين - الذي قام بثورته للانتقام من النظام الأموي عبر ممثله والمسؤول الأول عن مقتل الحسين، يزيد بن معاوية - على يد يزيد آخر هو ابن الحصين بن نمير السكوني أحد

أركان هذا النظام البارزين، وكأن ذلك جاء ليوحي بأن معركة الانتقام التي يخوضها الحزب الشيعي لم تنته بعد، وستبعث من جديد، ولكن مع وجوه أخرى وبأبعاد مختلفة.

بعد مقتل سليمان، تسلم راية القيادة نائبه المسيب بن نجبه الذي أثبت انه لا يختلف عن مستوى سليمان في جرأته المتطرفة وفي ايمانه العظيم، وقد وصفه أحد الذين شاركوا

في (عين الوردية) بقوله: ما رأيت أشجع منه انسانا قط، ولا من العصاة التي كان فيهم، ولقد رأيت يقاتل قتالا شديدا ما ظننت أن رجلا واحدا يقدر أن يبلى مثل ما أبلى، ولا ينكأ في عدوه مثل ما نكأ (٢). وقد سقط المسيب بدوره صريعا في المعركة (٣) بعد جهود

(١) ابن كثير: ٨ / ٢٥٥.

(٢) الطبري: ٧ / ٧٦ - ٧٧.

(٣) ابن كثير: ٨ / ٢٥٤.

مستमितة، وتبعه بقية القواد وعدد كبير من المقاتلين، باستثناء رفاعه بن شداد الذي اعترف بالهزيمة وأدرك عدم جدوى القتال، وكانت القيادة قد انتقلت إليه فأصدر أوامره سرا إلى البقية الباقية من التوابين بالانسحاب والتراجع. غير أن الاستجابة لم تكن جماعية، لان فئة، قدر عددها نحو مائة وثلاثين مقاتلا، رفضت فكرة الانسحاب، وأصرت

على الاستشهاد، فظلت تقاتل حتى أبيدت بكاملها (١). اما الباقون فقد انسحبوا تحت جنح

الظلام ممثلين لأوامر القائد العام. وكانت عملية الانسحاب مدروسة ومنظمة إلى حد كبير، ذلك أن رفاعه كان قد أمر بتشكيل فرقة من سبعين فارس، مهمتها تغطية الانسحاب

واشغال العدو، كما أمر بتهديم الجسور والقناطر وراء المقاتلين لإعاقة أي ملاحقة قد يقوم بها الأمويون.

تمت عملية التراجع بنجاح تام، وابتعد التوابون المنسحبون عن ميدان المعركة، واصبحوا

في منأى عن مطاردة الجيش الأموي المنتصر الذي استنكف عن محاولة اللحاق بهم (٢). وفي

طريق العودة إلى الكوفة عاودتهم ذكريات القتال في (عين الوردة) ورجعت إليهم من جديد

عقدة الشعور بالذنب، ففكروا بالرجوع والسير على خطى

(١) جون جلوب: إمبراطورية العرب ١٣٦.

(٢) ابن كثير: ٨ / ٢٥٤.

رفاقهم الذين وهبهم الله نعمة الشهادة. ولكن رفاة تمكن بعد صعوبة من اقناعهم بالتخلي عن هذه الفكرة ومتابعة الانسحاب إلى الكوفة (١). ولم تقتصر متاعب الانسحاب على التمرد والاصرار على الرجوع إلى ساحة القتال، وإنما

كانت مشاق الرحلة تفوق حدود الاحتمال، وتضفي عليها مسألة الجرحى (٢) وفقدان بعضهم في

الطريق، ظلالة مأساوية قاتمة. وقد حاول زفر بن الحارث الكلابي مواساتهم والتخفيف عنهم عند وصولهم إلى (قرقيسيا)، فأرسل إليهم المواد الغذائية، والأطباء لمداواة الجرحى، عارضا عليهم الإقامة ما شاءوا في مدينته. فأقاموا فيها ثلاثة أيام (٣) انصرفوا بعدها متبعين نفس الطريق الذي حملهم إلى (عين الوردة) حتى إذا بلغوا (هيت)

تفجرت أحزانهم من جديد بقاء إخوانهم من جماعة المدائن بقيادة سعد بن حذيفة بن اليمان، وهم في طريقهم إلى ساحة القتال (٤)، فكان مجيئهم متأخرا وفي غير محله. ولكنهم سجلوا على أية حال موقف التضامن

(١) جون جلوب: إمبراطورية العرب ١٣٦.

(٢) الفتوح لابن الأعمش الكوفي. نسخة اسطنبول (مخطوطة).

(٢) الطبري: ٧ / ٨٠.

(٤) ابن الأثير: ٤ / ٧٨.

السياسي والعقائدي مع رفاقهم التوابين من أجل الغفران والتكفير عن الذنب. كان اللقاء حزينا بكل ما تعنيه هذه الكلمة، لم يخفف بعض حدته الا افتراقهم، عائدين كل إلى مدينته، وقد غمره أسى عميق وحمل في قلبه صورة لن تنسى من الفجيعة. تابعت فلول التوابين بعد ذلك رحلة العودة إلى الكوفة، وكانت أخبار المعارك الانتحارية والبطولات الخارقة التي شهدتها (عين الوردية)، قد بلغت أسماع الكوفيين فهزتهم اعجابا، كما أن بعضهم آلمه أن تنهاوى تلك النخبة من الحزب الشيعي وتضيع جهودها هباء في غمار حرب غير متكافئة. فلما بلغوا مشارف المدينة، هرع لمواساتهم جمهور من الكوفيين، كان بينهم الأمير الزبير بن عبد الله بن يزيد الأنصاري الذي استقبل قائدهم رفاة معزيا ومشجعا، ومشيدا كذلك بالدور البطولي الذي قام به التوابون في مسيرتهم النضالية الرائعة ضد (قوى الطغيان) و (زمرة الجوار) (١). وفي الكوفة، اتصل بهم المختار من السجن معزيا: أبشروا فقد قضيتم ما عليكم وبقي ما علينا، ولن يفوتنا منهم من بقي ان شاء الله (٢). وكتب إلى زعيمهم رفاة

(١) الفتوح لابن الأعمش الكوفي. نسخة اسطنبول (مخطوطة).

(٢) الفتوح لابن الأعمش الكوفي. نسخة اسطنبول (مخطوطة).

مباشرا بالنصر القريب، ومعاهدا على اكمال المسيرة التي بدأها سليمان ورفاقه وان كان لا يفوته ان يغمز من قناة هذا الأخير بوصفه انه ليس بالرجل الذي يمكن ان يتحقق على يديه النصر وانما هو - أي المختار - القادر على حمل راية الحزب الشيعي وتنفيذ مخططاته الثأرية وتصفية كل من شارك في مأساة كربلاء، نظاما كان أم اشخاصا: أما بعد فمرحبا بالعصبة الذين عظم الله لهم الاجر ورضي فعلهم حين قتلوا، اما ورب البيت ما خطا خاط منكم خطوة ولا ربا ربوة الا كان ثواب الله أعظم من الدنيا، ان سليمان قضى ما عليه وتوفاه الله وجعل روحه مع ارواح النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين،

ولم يكن بصاحبكم الذي به تنصرون، اني أنا الأمير المأمور والأمين المأمون وقاتل الجبارين والمنتقم من أعداء الدين المقيد من الأوتار، فأعدوا واستعدوا وابشروا. أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدم أهل البيت والدفع عن الضعفاء وجهاد المحليين (١).

(١) ابن الأثير: ٤ / ٧٨.

النتائج

(١٦٤)

ان ثورة التوابين - كما رأينا - أخفقت عسكريا، وتحطمت قوتها الأساسية في (عين الوردة). وسبب هذا الاخفاق يعود بدون شك إلى عامل رئيسي، هو الاختلال الظاهر في

توازن القوى بين الجيشين الأموي والتوابي. فبينما كان الأول، قويا، انضباطيا ومتفوقا بشكل بارز في إمكانياته البشرية والمادية، كان الآخر ضعيفا، اقتصر على عدد محدود من المتطوعين، الذين توفر لهم من الحماسة والفروسية والايمان، أكثر مما

توفر من التنظيم والعدد والعتاد. وهذا الواقع اعترف به سليمان قبيل المعركة عندما لاحظ هزلة جيشه وقلة إمكانياته بالمقارنة مع أعدائه الأمويين (١). وقد أدى هذا الوضع المتباين لدى كل من الفريقين، إلى حسم الموقف بسرعة وانهاء المعركة خلال أيام

ثلاثة رغم الجهود البطولية التي بذلها التوابون في ساحة القتال (٢).

(١) الطبري: ٧ / ٦٦.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ٣ / ٩٤.

وعلى الرغم من أن المنطلقات الأولى للحركة التوابية جاءت منسجمة مع ما آلت اليه من نتائج فان التقويم الموضوعي لها هو أبعد من حدود الارتجال والتهور، كما في أذهان بعض المؤرخين. فقد ولدت حركة التوابين في الظلام تحت واقع التكفير عن الذنب الذي أوجده مصرع الحسين في كربلاء، وعاشت كمنظمة سرية تعمل في الخفاء - طوال خلافة يزيد بن معاوية - لتكوين قاعدتها الشعبية في الكوفة، وتحاول ان تستفيد من الظروف التي تمنحنت عن وفاة هذا الأخير بخروجها من الاطار السري واعلانها الثورة على النظام الأموي المسؤول المباشر عن مقتل الحسين.

ومع اعترافنا بأن حركة التوابين كانت مجرد حركة تكفيرية التزمت بهدف أساسي هو التوبة، وبأنها كحركة سياسية لم تتضمن أي برنامج اصلاحي سياسيا كان أم اجتماعيا، فلا بد لنا أن نعترف أيضا بأنها كانت حركة منظمة ومدروسة، دأبت بصورة جدية على استقطاب الحزب الشيعي بكل فصائله وتعبئته لخوض معركة الانتقام للحسين. ولكن التمزق الذي أصاب هذا الحزب، بسبب تردد بعض عناصره، واستنكاف البعض الآخر عن المشاركة وانتقاده زعامة الحركة التي لم تضع امامها مخطط الاستيلاء

على السلطة، فضلا عن ظهور المختار في الكوفة في وقت شارفت فيه هذه الحركة على

النضج، فكان لظهوره الأثر الكبير في ارتداد الكثيرين عنها واستمالتهم إلى دعوته الأكثر واقعية بمضمونها السياسي والاجتماعي.

ان كل هذه الأمور أدت في النهاية إلى نتيجة حتمية وهي الاخفاق العسكري المدمر للحركة التوابية، وان كان ينبغي أن نكون حذرين عند استعمالنا صيغة الاخفاق أو الفشل، لان الهزيمة العسكرية لم تكن مفاجئة أو غير متوقعة بالنسبة للتوابين، وانما كان هؤلاء يعرفون سلفا النتائج المترتبة على تحركهم والتي حذرهم منها أكثر من محذر. لذلك توجهوا إلى المعركة وهم يشعرون في قرارة أنفسهم انهم متجهين إلى نهايتهم

المحتومة بكل قناعة وبكل ادراك واقعي للظروف، فحققوا بذلك أهدافهم المرسومة، وكان

لهم من النتائج ما أرادوا.

والحقيقة ان أي تقويم موضوعي لحركة التوابين، ينبغي أن لا يتعد عن المفهوم العام الذي انطلقت منه، وهو الشعور بالذنب ومحاولة التكفير عنه، ذلك الشعور الذي جمع عناصرها القيادية والمتطوعة في تنظيم سري، تحول بعد فترة إلى حركة انتحارية، هدفها

الأول الانتقام

للحسين أو الموت في سبيله (١). ومن خلال هذا المفهوم نستطيع القول أن فشل الحركة العسكري لا يعني بالضرورة انها فشلت على الصعيد السياسي، ولا يعتبر مبالغة بأية حال إذا اعتبرناها حركة سياسية ناجحة، نفذت خطة موضوعة سلفاً، وقامت بتأدية مهمتها الانتقامية على أكمل وجه. وأخيراً فإن أبرز ما حققته الحركة التوابية من نتائج، انها سجلت بعض الايجابيات على صعيد حركة النضال الشيعي، وانعكست تأثيراتها بصورة خاصة على المجتمع الكوفي، فعبأت جماهيره بالثورة، وعمقت في نفوسهم الكراهية والحقد ضد النظام الأموي، الامر الذي جعل من الكوفة فيما بعد مسرح التحرك الدائم للحزب الشيعي وثوراته المتلاحقة، المناهضة للنظام. والواقع ان الشيعة في الكوفة ظلوا يمارسون النقد الذاتي إزاء موقفهم من الحسين بعد عودة بقايا التوابين من (عين الوردية)، واستمر التعبير عن الندامة والشعور بالاثم يمارس عبر نشاطات وتحركات مختلفة. ولكن غياب عدد من الشخصيات القيادية في الحزب الشيعي أدى إلى فراغ في الزعامة القادرة على تسجيل مواقف سياسية ذات أهمية. حتى رفاعه بن شداد القائد

(١) رأوا انهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم، الا قتل من قتله أو القتل فيه مروج الذهب
٩٣ / ٣

التواهي المنسحب، لم يكن بمقدوره، وهو المتقدم في السن والمهزوم عسكرياً، أن
يتزعم
الحزب الشيعي المفكك حينئذ. فهناك فراغ في الزعامة، واختلاف في آراء القادة حول
موقف الحزب من التطورات السياسية الجديدة، وهناك تملل في أوساط القاعدة
الجماهيرية
التي لا تزال تتفجر بالنقمة وتقوم بضغوط على القيادة من أجل استئناف التحرك واتخاذ
قرارات أكثر جدية.
وكانت هذه الظروف فرصة نادرة امام الزعيم الشيعي المعتقل آنذاك في سجن الكوفة،
المختار الثقفي. فراقبها باهتمام كبير، وكتب إلى صهره عبد الله بن عمر موسطاً إياه
من جديد لدى عبد الله بن يزيد أمير الكوفة (١) من أجل الإفراج عنه. وقد تم له ذلك
لقاء عهد قطعها لهذا الأخير (٢) بعدم إثارة المتاعب وتجميد نشاطاته السياسية.
ولكن
المختار لم يكن بأية حال ذلك الرجل الذي يلتزم بعهد من هذا النوع وهو المحنك
والسياسي الطموح، وانما سخر منها، وعجب لسذاجة الذين اعتقدوا انه سيحافظ عليها
حيث
قال: ما أحققهم حين يرون اني أفي لهم بايمانهم هذه، أما حلفي لهم بالله فإنه
ينبغي لي

(١) ابن الأثير: ٤ / ٨٩.

(٢) الطبري: ٧ / ٩٤.

إذا حلفت على يمين فرأيت ما هو خير منها أن أدع ما حلفت عليه وآتي الذي هو خير وأكفر يميني، وخروجي عليهم خير من كفي عنهم (١).
وتشاء الصدف أن يتحلل المختار تلقائياً من عهوده مع عبد الله بن يزيد، حين غادر هذا

الأخير قصر الإمارة معزولاً بقرار من سيده ابن الزبير إذ وجد فيه ضعفاً لا يتناسب مع خطورة المرحلة وعين مكانه أحد أشد مؤيديه حماسة هو عبد الله بن مطيع القرشي (٢)

الذي لم يكن بينه وبين المختار شيئاً من الموثيق. وهكذا خرج المختار من سجنه، ليجد نفسه في مواجهة أحداث مصيرية وخطيرة، فكان عليه أن

يتحرك فوراً وأن لا يتردد في اتخاذ الموقف المناسب بكل جرأة، قبل أن تقوم شرطة الوالي الجديد برصد نشاطاته واعدته من جديد إلى السجن (٢). وبسرعة أعلن برنامجه السياسي باسم محمد بن الحنفية أحد أبناء علي من غير فاطمة، الذي كان يعيش في المدينة، حيث زعم أنه اتفق سرا مع هذا الأخير على الدعوة له في الكوفة. وكان على

(١) الطبري: ٧ / ٩٤.

(٢) الطبري: ٧ / ٩٠ - ٩١.

(٣) فلهوزن: الخوارج والشيعة ٢٠٣ - ٢٠٤.

المختار أن يقنع الكوفيين بصحة زعمه، لان فريقا كبيرا منهم شكك في هذا الامر، وانتدب وفدا ذهب لمقابلة الزعيم العلوي من أجل الوقوف على حقيقة ما يزعمه المختار.

ورغم ان ابن الحنفية لم يعط جوابا حاسما، وذلك لاعتبارات متعددة أهمها، موقعه في الدعوة العلوية ثم تخوفه من ابن الزبير، سيد الحجاز، الذي وضع ابن الحنفية تحت مراقبة أجهزته المشددة.

ولكن الزعيم العلوي على ما يبدو لم يمانع في مباركة ما يقوم به المختار واستناده في دعوته على العلويين إذ قال للوفد الكوفي: انا لا نكره أن ينصرنا الله بمن شاء من خلقه (١).

ومن المرجح أن المختار، قبل خروجه من الحجاز أو بعده، كان قد اتصل بعلي بن الحسين

وباحثه بأمر الدعوة له في العراق ولكنه لم يلق استجابة، فانصرف عنه إلى محمد بن الحنفية (٢). وسواء قابل المختار الزعيمين العلويين، أم أنه زعم ذلك ليعطي تسويغا أقوى لدعوته وبعدا أكثر من مجرد الثأر للحسين والتكفير عن الذنب،

(١) ابن كثير: ٨ / ٢٦٥.

(٢) المسعودي: مروج الذهب ٣ / ٧٤.

فان موقف ابن الحنفية من المختار - رغم عدم وضوحه - انعكس على الوضع العام في الكوفة حيث شهد الحزب الشيعي تحولا نحو ابن الحنفية الذي لم يكن مطروحا حتى ذلك الحين كإمام للدعوة العلوية، وأدى إلى نجاح المختار في فرض نفسه على الحزب وتسلم زعامته.

ولقد التف حول المختار بعد خروجه من السجن، نفر من الزعماء الشيعيين الذين وجدوا فيه الشخصية القيادية الصالحة لمتابعة التحرك. وكان من أبرز هؤلاء: رفاعة بن شداد، ويزيد بن انس، وأحمد بن شميظ، وعبد الله بن شداد الجشمي، والسائب بن مالك الأشعري.

وقد نشط هؤلاء وقاموا بحملات دعائية في أسواق الكوفة وأحيائها لحمل الناس على تأييد المختار والبيعة له (١). ولكن عقبات عدة جابهت المختار، وأخرت قليلا سيطرته على الوضع في الكوفة فكان لا بد له من معالجتها بالسرعة الممكنة. ومن هذه العقبات مثلا، موقف حزب الاشراف منه الذي لم يقلل عدائية عن موقفه السابق من التوايين (٢)، ومنها أيضا تردد إبراهيم بن الأشتر النخعي أحد كبار الشيعة في الكوفة، في الانضمام إلى جانب

(١) ابن كثير: ٨ / ٢٦٤.

(٢) ابن الأثير: ٤ / ٨٩.

المختار. وكان إبراهيم - كأبيه الأشتر - شديد الاخلاص في ولائه لعلي وأبنائه، ومتطرفا إلى أبعد حدود التطرف في عدائه للأمويين، ولكن مع نظرة خاصة للأمور ورؤية

مختلفة تماما عن غيره من زعماء الحزب الشيعي، فهو لم يشترك مثلا في ثورة التوابين، ووقف موقف الحذر من المختار، لان التحرك الشيعي كان برأيه حينئذ، تحركا

انفعاليا يفتقر إلى خطط منظمة واستعدادات طويلة وأهداف واضحة. ولعل إبراهيم كان يطمح إلى أن يقود بنفسه الحزب الشيعي في العراق، خاصة وانه كان

على اتصال دائم مع زعماء البيت العلوي ومنهم محمد بن الحنفية نفسه (١)، وهذا ما دعاه

إلى التشكيك بمزاعم المختار. غير أن هذا الأخير تمكن بعد الحاح من اقناع إبراهيم بالاعتراف بدعوته والبيعة له. ويبدو ان الموافقة على ذلك كانت بايحاء من زعيم الدعوة محمد بن الحنفية الذي كتب إلى إبراهيم بهذا الشأن (٢). والواقع ان المختار كسب حليفا قويا بانضمام ابن الأشتر اليه، الذي ما لبث ان صار من ألمع رجالات الثورة

(١) ابن كثير: ٨ / ٢٦٨.

(٢) الطبري: ٧ / ٩٨ - ٩٩.

وقائدها العسكري الأول، وأصبح يحضر بانتظام الاجتماعات السرية في بيت المختار لتحضير الانقلاب ضد الحكم الزبيري في الكوفة (١)، واتخاذ قرار بتحديد ساعة الخروج حيث اتفق على أن تكون ليلة الخميس في الرابع عشر من ربيع الأول سنة ست وستين هجري (٢). وفي تلك الأثناء كانت التقارير ترد على عبد الله بن مطيع - والي الكوفة - من قائد شرطته (٣)، محذرة من انقلاب قريب يعده المختار (٤). فبعث حينذاك ابن مطيع رجاله في أحياء مختلفة من الكوفة في محاولة لافشال خطط المختار، ولكن ذلك لم يؤد إلى أي نتيجة سوى المساهمة بتعجيل انفجار الثورة وتقديم موعدها يومين (الثلاثاء ١٢ ربيع الأول ٦٦ هجري). فقد حدث ان كان ابن الأثير - ومعه مائة من المسلحين - في طريقه ذلك اليوم إلى منزل المختار أن اصطدم بصاحب الشرطة اياس بن مضارب الذي اعترض طريقه، فطعنه إبراهيم برمحه طعنة

(١) ابن كثير: ٨ / ٢٦٦.

(٢) ابن كثير ٤ / ٩١.

(٣) اياس بن مضارب، ابن الأثير ٤ / ٨٩.

(٤) الطبري: ٧ / ١٠٠.

أودت بحياته (١). وكانت هذه الحادثة إشارة البدء بالتحرك. وبسرعة مذهلة تم استيلاء المختار وقائده ابن الأشر على الموقف، وهزم القائد (٢) الذي أعده الوالي وحزب الاشراف (٣)، وما لبث ان هرب الوالي نفسه، وغادر قصر الامارة متخفياً ولجأ إلى منزل أبي موسى الأشعري (٤). وهكذا نجحت ثورة المختار الثقفي، وتحققت معها تطورات الحزب الشيعي لاستلام الحكم، لأول مرة منذ قيام الخلافة الأموية وتنازل الحسن لمعاوية. وهناك عدة عوامل أسهمت بدون ريب في انجاح هذه الثورة ومهدت لها الطريق لتصل إلى السلطة دون أدنى صعوبة. ومن أبرز هذه العوامل:

١ - الاعتماد بشكل أساسي على الفئات الشعبية من العرب وغيرهم الذين ضاقوا بالاضطهاد الأموي ثم الزبيري، ووجدوا في ثورة المختار متنفساً لتحقيق مطالبهم الإصلاحية.

(١) الطبري: ٧ / ١٠٠

(٢) شيبث بن ربيعي.

(٣) الطبري ٧ / ١٠٣.

(٤) ابن كثير: ٨ / ٢٦٧.

٢ - احتواء الحركة لقيادات الحزب الشيعي التي وجدت في المختار سياسيا بارعا ومناضلا شديد المراس، واقتنعت به كزعيم للحزب، مفوض من قبل أحد كبار العلويين،
محمد بن الحنفية.

٣ - ان الحكم الزبيري لم يقيم بأي تغيير سياسي في الكوفة ولم يكن لديه أي برنامج اصلاحي، بل كاد يكون بمناهجه استمرارا للحكم الأموي. وقد جاءت خطبة ممثله في الكوفة حول الخراج تفجر الغضب وتشعل النقمة (١).

٤ - ان اشراك العامل الزبيري بعض قتلة الحسين في الحكم وفي حرب المختار (٢)، ترك

انطبعا سيئا في صفوف المقاتلين معه، وأخذت مجموعات منهم تنصرف إلى معسكر المختار.

٥ - ان انضمام ابن الأشر إلى المختار، أدى إلى ترجيح كفته وساعده على تحقيق النصر،

ذلك أن تأثير ابن الأشر كان نابعا من قوته القبلية ومكانته البارزة في الحزب الشيعي، فضلا عن إمكانياته الشخصية كقائد عسكري موهوب ومغامر. هذه أهم العوامل التي أوصلت المختار إلى السلطة

(١) ابن الأثير: ٤ / ٩٤.

(٢) دائرة المعارف الاسلامية الشيعية: ٢ / ٥٩.

في الكوفة، عبر انقلاب أبرز ما فيه أنه تم دونما إشراف في إراقة الدماء أو جنوح نحو العنف في ملاحقة الذين تم الانقلاب عليهم. فالإشراف طلبوا الأمان، فأجيبوا اليه (١)، والعامل الزبيري المهزوم أخرج من مخبأه، مبعداً إلى البصرة ومعه مائة ألف درهم (٣). وبذلك خضعت الكوفة بكل فئاتها - رسمياً على الأقل - للمختار الذي اعتلى المنبر في

المسجد ليعلن برنامجه السياسي والإصلاحي، وكان محوره إقامة حكم علوي يشيع العدل بين

الناس ويبعث الطمأنينة في النفوس ويتعايش مع مختلف الأحزاب. ومما جاء فيه: تبايعوني على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحليين والدفاع عن الضعفاء، وقتال من قاتلنا، وسلم من سالمنا والوفاء ببيعتنا لا نقيلكم ولا نستقيلكم (٣).

على أن المختار إذا كان قد استولى على السلطة بمثل هذه السهولة، فإن الاحتفاظ بها وسط تلك الدائرة من الصراعات الخطيرة التي اتخذت من الأرض العراقية

(١) ابن الأثير: ٤ / ٩٥.

(٢) ابن كثير: ٨ / ٢٦٨.

(٣) الطبري: ٧ / ١٠٨ - ١١٠.

مسرحاً لها كان أمراً في منتهى الصعوبة. فهناك أخطار مباشرة تتهدد نظامه الحديث، وتستهدفه مباشرة كلما اقترب الجيش الأموي - الذي فتك بالتوايين - من الكوفة. وهناك

في الطرف الآخر ابن الزبير الذي لا زال يحتفظ بسيطرته على جنوب العراق، وكان على

المختار أن يتحاشى الاصطدام به، واقناعه بأن حركته ليست ضده، مع ما في هذا الاقتناع

من استحالة، خاصة بعد أن منع الوالي الزبيري الجديد من دخول المدينة (١). بالإضافة إلى ذلك فإن الجبهة الداخلية، لم تكن خالية من المتاعب. فالمختار وصل إلى الحكم - كما هو معروف - بواسطة الحزب الشيعي وهو ليس كل الكوفة. فكان من الطبيعي أن

يواجه معارضة قوية - لا سيما من الاشراف الذين بايعوا مكرهين - سببت له الكثير من المشاكل وكادت تطيح بسلطانه الحديث العهد.

والواقع ان الاحداث كانت تتلاحق بصورة مثيرة ولا بد من مواجهة الموقف بجرأة وحزم.

وكان وصول عبيد الله بن زياد بجيشه الأموي إلى الموصل (٢) من أثقل الأمور على المختار الذي بدا وكأنه يسابق الزمن في

(١) فلهوزن: الخوارج والشيعية: ٢١٥.

(٢) ابن كثير: ٨ / ٢٦٨.

استعداداته العسكرية لمواجهة أشد أعدائه خصومة وأكثرهم الحاحا. ولكي يؤخر زحف هؤلاء نحو الكوفة، أرسل المختار جيشا من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة يزيد بن انس، المريض والمسن حينئذ (١) فاشتبك مع طلائع الجيش الأموي وتمكن بعد يومين من تحقيق انتصار غير متوقع. ولكن ذلك اقترن بوفاة القائد المنتصر في نفس الليلة، فكان لموته تأثيرا سيئا على معنويات الجنود الذين تهييوا ضخامة الجيش الأموي وأخذوا في التراجع إلى الكوفة (٢). بلغت أخبار الانسحاب، ومعها إشاعات عن هزيمة جيش المختار (٣). فأسقط في يده، وأمر قائده ابن الأشتر بالتوجه مع سبعة آلاف مقاتل (٤) للحؤول دون توغل ابن زياد في العراق. غير أن خروج ابن الأشتر من الكوفة ترك مضاعفات خطيرة في المدينة وزاد الموقف حرجا، حين انتفض الاشراف - وكأنهم كانوا ينتظرون خلو الكوفة من ابن الأشتر - وقد كان الحافز وراء ذلك، تضارب مصالحهم

(١) الطبري: ٧ / ١١٣ - ١١٤.

(٢) الطبري: ٧ / ١١٥.

(٣) فلهوزن: الخوارج والشيعة: ٢١٨.

(٤) ابن كثير: ٨ / ٢٦٩.

الاقتصادية والسياسية مع وجود حكومة شيعية في الكوفة برئاسة المختار، أبرز اهتماماتها معاقبة المسؤولين عن مقتل الحسين، وبعضهم كان من الاشراف، وانصاف الطبقات المحرومة والفئات المضطهدة لا سيما الموالي، وغير ذلك مما أثار حفيظة هؤلاء

ودفعهم إلى التآمر على الحكم الشيعي الذي هدد ما تمتعوا به من امتيازات خاصة في ظل

الحكومات السابقة (١).

انطلق الاشراف في زمر مسلحة في الكوفة وحاصروا قصر الامارة، وقد أدى ذلك إلى قتال

عنيف في الشوارع خاضته الشيعة ببسالة، وصمد المختار، فلم تفقده خطورة الموقف توازنه، وقدرته الفائقة على المناورة، حين لجأ إلى المماطلة بالتفاوض مع المتמרدين (٢) كسبا للوقت ريثما يصل قائده ابن الأشر، وكان قد كتب اليه بشأن المؤامرة (٣).

عاد إبراهيم بسرعة إلى الكوفة، وبعودته أتيح للحزب الشيعي - وكانت الحماسة قد بلغت

به أقصى درجاتها، يزيدا اشتعالا صرخات التوابين بقيادة رفاعة ابن شداد مرددة شعارها المعروف يا لثارات

(١) بيضون - زكار: تاريخ العرب السياسي ١١٧.

(٢) ابن كثير: ٨ / ٢٧٠.

(٣) ابن الأثير: ٤ / ٩٨.

الحسين (١) - أن يقضي على تمرد الاشراف ويصفي مقاومتهم. وقد أتاح ذلك بدون شك أمام المختار فرصة الاسراع بتنفيذ قراره الانتقامي من قتلة الحسين وتبعهم في أنحاء العراق، فأوقع بالكثيرين منهم (٢) قتلا ونفيا وتعديبا، كان بينهم عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوش (٣).
وبعد يومين من اخماد تمرد الاشراف، غادر إبراهيم ابن الأشر الكوفة من جديد في طريقه إلى الموصل حيث كان يربط بجوارها عبيد الله بن زياد مع جيشه الأموي. وعند نهر الخازر (٤) اشتبك الجيشان في ملحمة عظيمة (٥) بذل فيها الشيعة جهودا عظيمة للسيطرة على زمام الموقف، وقامت فرقة انتحارية منهم باختراق صفوف العدو، مستهدفة عبيد الله بن زياد فتمكنت من الوصول اليه وقتله. ثم قتل غيره من القواد الكبار،

-
- (١) الطبري: ٧ / ١٢٠.
(٢) الطبري: ٧ / ١٢٠.
(٣) جون جلوب: إمبراطورية العرب ١٥٣ - ١٥٤.
(٤) رافد للزاب الكبير.
(٥) في الشهر الأول من سنة ٦٧ للهجرة، ابن الأثير: ٤ / ١٠٩.

الامر الذي أحدث بلبلة وفوضى وأدى إلى هزيمة ساحقة للجيش الأموي (١). وهكذا اكتملت الصورة الانتقامية، وغمر الارتياح والفرح نفوس الشيعة بمقتل عبيد الله بن زياد الذي اجتز رأسه وحمل إلى الكوفة ليوضع في نفس المكان الذي وضع فيه رأس

الحسين يوم كان ابن زياد واليا على المدينة. وحينذاك بلغ المختار قمة مجده السياسي، ولكنه وجد نفسه أيضا أمام المنحدر، يتهاوى فيه بمثل السرعة التي صعد بها إلى القمة. ذلك أن الانتصار الذي حققه سيد الكوفة الجديد على الأمويين - أعداء ابن الزبير - لم يخفف من حفيظة هذا الأخير نحو المختار الذي أضّر كثيرا بقضيته (٢). فبعد

قليل من الوقت، والمختار لم يبق بعد من سكرة الانتصار، فوجئ بمصعب ابن الزبير يزحف

بجيشه نحو الكوفة، وكان قد أرسل من قبل أخيه أميرا على البصرة سنة ٦٧ للهجرة (٣)

وقد شغل الاشراف المنفيون في البصرة دورهم البارز في تحريض مصعب وتعجيل الحملة التي

أعدّها للقضاء على المختار.

وفي الكوفة، بدا كأن المختار لم يفاجأ بأخبار هذه

(١) الطبري: ٧ / ١٤٤.

(٢) الطبري: ٧ / ٨٠ - ٨١.

(٣) ابن الأثير: ٤ / ١١٢.

الحملة بقدر ما فاجأه التوقيت. فاستعد للامر ودخل المعركة بامكانيات محدودة،
خاصة

وأن قائده الشجاع إبراهيم بن الأشتر كان لا يزال في الموصل (١) لأسباب غير
واضحة

تماما، وربما كانت لإبراهيم مسوغاته في الابتعاد عن الكوفة والانشغال عنها بأمور
غير أساسية، وأن التزامه في التحالف مع المختار كان مرحليا ليس أكثر، وكان هذا
الأخير يدرك ذلك ويرى في قائده منافسا خطيرا أكثر من مجرد حليف مخلص.
وفي أثناء القتال الذي احتدم في (حروراء) (٢) بين كل من الجيشين، برز تفوق
الزبيريين

بشكل ملحوظ وازداد ضغطهم على رجال المختار الذين تراجعوا مهزومين، تتبعهم
جنود ابن

الزبير. وما لبثت أخبار الكارثة ان وصلت إلى المختار الذي اعتصم في قصر الامارة
بعض

الوقت، غير أنه خرج يطلب الموت (٣) - على حد تعبيره - بعد أن اشتدت عليه وطأة
المحاصرين، فقتل بعد مقاومة بطولية نادرة، وانطوت فكرة الحكومة الشيعية في الكوفة
التي غابت معه وكان غيابها طويلا جدا.

(١) فلهوزن: الخوارج والشيعة: ٢٢٩.

(٢) ابن الأثير: ٤ / ١١٣.

(٣) قال لأصحابه وهو خارج إلى القتال: ان الحصار لا يزيدنا الا ضعفا، فانزلوا بنا
نقاتل حتى الليل ونموت كراما. ابن الأثير: ٨ / ٢٨٨.

ان سقوط حكومة المختار في الكوفة لم يؤد إلى استسلام حركة المعارضة العراقية،
وانما استمرت تتصاعد ولكن بقيادات مختلفة وبأهداف ومناهج متباينة. فبعد المختار تسلم
الحزب الزبيرى السلطة في العراق بزعامة مصعب، مستفيدا من الظروف التي كانت
خير حليف في أنهاك قوى العدو وتعبئة القوى الشعبية بالكراهية ضد الأمويين.
ولكن إلى أي مدى سيحتفظ هذا الحزب بالسلطة ذلك هو السؤال؟ فقد أصبح النظام
الأموي أكثر مناعة واجتاز أزماته العائلية والقبلية بعد وصول عبد الملك بن مروان إلى الحكم
وتطلع الانظار اليه حينئذ لانقاذ الدولة الأموية من انقساماتها وإعادة بنائها من
جديد قوية، موحدة.
وبعد أن قضى هذا الخليفة بعض الوقت في تصفية مشاكله الداخلية ومعالجة الوضع
العسكري على جبهة البيزنطيين تحول نحو معركته المصيرية مع منافسه في الخلافة وشريكه في
اللقب عبد الله بن الزبير. فلما شعر باستقرار الأحوال في عاصمة الخلافة قاد بنفسه
حملة عسكرية إلى العراق صيف ٧٢ هجري (١) لتوجيه ضربته الأولى

(١) ضياء الدين الريس: عبد الملك بن مروان: ٢١٠.

إلى مصعب، فاشتبك معه في معركة طاحنة عند (دير الجاثليق) في الجزيرة (١) انتهت بهزيمة الجيش الزبيري وحلفائه من العراقيين ومقتل مصعب وقائده الشهير الذي انضم إليه إبراهيم بن الأشتر. وكان ذلك إيذانا برجوع العراق مرة أخرى إلى السيادة الأموية ليستكين فترة ثم ينقض من جديد معبرا بمختلف الوسائل السلبية عن رفضه للحكم

الأموي وتوقه إلى التحرر والاستقلال.

وتجدر الإشارة إلى أن نضال الحزب الشيعي وهو إحدى فصائل المعارضة الأكثر أهمية في

العراق مر بفترة من الركود النسبي وذلك لافتقاده إلى المغامرين والقادة العظام في صفوفه، وفله في اغتنام الأحداث التي كان من الممكن أن تقوده إلى تحقيق طموحاته السياسية لو أحسن استغلالها جيدا. وعلى ذلك ستشهد الفترة المتبقية من الخلافة الأموية تطورا ملموسا في نظم الحزب الشيعي وعقائده، وتحولا بارزا في مسيرته النضالية الدائمة. ولكن هذا لم يؤد بأية حال إلى تخلي هذا الحزب عن دوره الريادي

في كل الثورات الرافضة التي شهدتها الأرض العراقية منذ مصرع الحسين حتى سقوط الدولة

الأموية نهائيا على يد إحدى الدعوات التي فرزتها الحركة النضالية الشيعية.

(١) المسعودي: مروج الذهب: ٣ / ١٠٧ - ١٠٩.